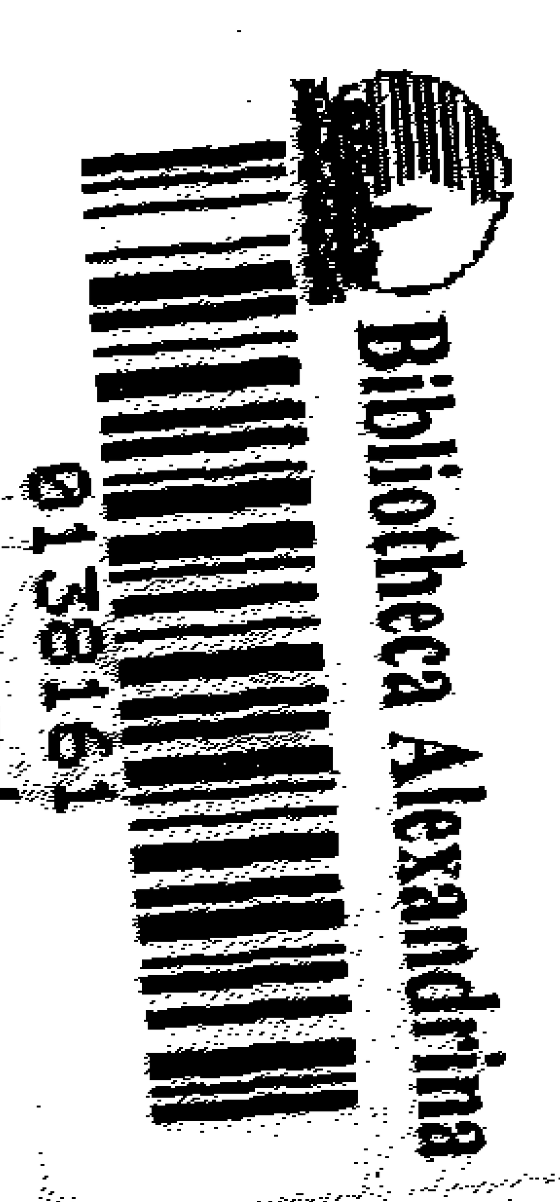
كتاب ثقافي عسكري

الجيوش والحرب والسياسة
في
أفريقيا الشمالية القرن التاسع عشر والعشرون

طبع وترجمة

الدراسات والابحاث العسكرية



دمشق

١٩٨٠

كتاب ثقافي عسكري

الجيوش والحرب والسياسة

في

أفريقيا الشمالية القرن التاسع عشر والعشرون

طبع وترجمة

مركز الدراسات والابحاث العسكرية

دمشق

١٩٨٠

المقــدمة

انبثقت الدراسات التالية من ابحاث جامعية منفردة تمت بدون اهتمامات مشتركة وبلا اهتمام مسبق بأي نوع من الوحدة او التجانس .

لذلك لن تستطيع التعبير عن اي تماثل او تطابق في وجهات النظر او المحاكمة . الا انها صدرت ، بعد اجراء بعض التعديلات ، مترابطة فيما بينها الى حــد ما . وهكذا قــد لا يكون اعتباطيا ان نقترح مؤقتا هــذا المعنى : ان الجيش يغزو الارض ــ او يحررها ــ ، ولكن وظائفه لا يمكن ان تقتصر على ذلك في بلد يقطع تحت السيطرة الاستعمارية .

على ارض افريقيا الشمالية اولا ، اختبر الجيش وفرض لمدة طويلة استراتيجية وتقنية للغزو من شأنها ان تكفلا للمنتصر قدرة هائلة على الاكــراه والقهر : وقد كان هذا اول ترتيب اساسي يتخذ لبسط السيطرة ، يعتمــد على معرفة صحيحة للرجال والامكنة لانماط الحياة وانواع الانتاج ، للوتيرات الاقتصادية والمسافات . بدون هذه المهارة يظل كل تفوق آخر لا يستحق الذكر . وهكذا كانت بدايات فرنسا في الجزائر بدايات غزو شرس وشامل . بعد ذلك أستمر الجيش في تشديد قبضته على البلاد ومراقبة شؤونها عــن كثب . لذلك رأينا هذا الجيش بمترجميه واخصائييه ، بأساليبه وايديولوجيته، يدعي لنفسه مسؤولية الحكم منذ البداية ، لان التمرد كامن كالجمر تحــت الرماد ، والجيش هو الملاذ الذي لا بد منه ، ولان استمرار هذا الوضع فــي صالحــه مما جعله يسعى بطبيعة الحال الى تأجيل ممارسة السلطات المدنية لصلاحياتها الكاملة .

اما وضع الجيش هذا فيمكن تحليله استنادا الى عاملين اولهما تجاه السكان المسلمين الذين يعتبرون خصوما مسلحين ورعايا في آن واحد ، وثانيهما تجاه الحكومة التي يتجاهلها والتي تصل علاقته معها احيانا الى حد التمرد وشق عصا الطاعة . هذا هو الجيش اذن بمسؤولياته وطموحاته السياسية المتشابكة . ومن الامور ذات الدلالة الخاصة ان العادة قد جرت على التحدث عن عمليات تأديب بدلا من الحرب عندما تتقدم الارتال في منطقة جنوب وهران وعلى التخوم الجزائرية المراكشية عند مطلع القرن العشرين . لا يسمح هذا التعبير بالاقلال من وزن الاسلحة ، ولكنه يعني خاصة ان مهنة الضابط ، خارج الفن الظاهر للقتال والملاحقة ، تتضمن تقديرا صحيحا للقوات المختفية للقبائل وقدراتها على المقاومة .

بعد ذلك بوقت طويل ، تبدلت ظروف الصراع وشروطه . ففي الجزائر ، اتسعت حرب التحرير حتى بلغت ابعاد مجابهة يلقي من خلالها المقاتل في كفة الميزان بكل ما يملك من تأهيل نظري وثقافة وطنية ، كما يعبىء صداقاته الاجنبية ويتمرس اخيرا في استخدام السلاح . اصبحت حرب التحرير هذه حربا شاملة بكل معنى الكلمة ، بحيث تذكرنا احيانا بالمسيرات الحربية الطويلة وتجمع في الوقت نفسه بين القتال الوطني والثورة السياسية .

الا انه لا بد من التنويه هنا بأن تسلسل تقديم المواضيع ليس سوى سلسلة عادية من اللقطات لفترات الماضي المختلفة ، البعيدة منها او القريبة . اما ما تبقى فان الصلات المتبادلة والتقاطع تظل عرضية . اضف الى ذلك ان العمق يتفاوت من حدث لآخر ، لان المؤلفين لم يدعوا انهم يريدون ان يقدموا، لنفس النزاع الطرفين المتحاربين ، المغربي والفرنسي ، ولا كافة القوات المتصارعة او مجمل المشاريع السياسية والعسكرية للمجابهات .

هذا ما يفسر لنا ظهور قبائل او وطنيين هنا ، او هيئات وارتال متحركة او ايديولوجيات سائدة هناك . لا يعتبر الخيار هنا واحدا ، لانه املى ، لكل مثال على حدة ، نتيجة الوضع المؤقت للابحاث من جهة ولطبيعة الوثائق التي تم الرجوع اليها من جهة ثانية .

دانييل نورمان

حــول حــرب افريقيــا
((التمرد والقمــع))

(١٨٤٥ – ١٨٤٧)

من المعروف لدى الجميع ان كل استراتيجية لها ما يقابلها ويبررهـا لانها تنطبق دائما مع مشروع اقتصادي واجتماعي لدى من يضعها وينفذها . على ضوء ذلك لا تخلو دارسة غزو الجزائر من العبر . فهناك من جهة الاهداف الامبريالية للسياسة الفرنسية ، ومن جهة ثانية محاولات بناء الدولة من قبل الامير عبد القادر ، المستند الى الرفض الشعبي للغزاة ، كل ذلك ادى الـى ظهور اشكال مبتكرة من الحرب والصراع . من هذه الزاوية نستعرض هنا العناصر الاساسية للفترة التي شهدت الجهود الاخيرة التي بذلها الامير في محاولة منه لتقويم وضع ميؤوس منه .

في عام ١٨٤٥ ، كان جيش افريقيا يبدو وكأنه الحاكم المطلق للجزائر . كذلك تم تعيين حدود هذا البلد مع الدول المجاورة ، سواء من جانب واحـد وبدون معاهدة دقيقة مع وصاية تونس ، او بموجب معاهدة نظاميـة مـع امبراطورية المغرب . اما في الجنوب فقد سمحت بعض الحملات الحديثـة بتأكيد السيادة الفرنسية حتى ما وراء السهول العليا والاطلس الصحراوي .

داخل الارض الجزائرية ، نجد ان النظام العسكري يسود في كل مكان باستثناء منطقة مدنية صغيرة تنحصر في « سهل الجزائـر » وجـزء مـن « ميتيدجا » (Mitidja) وهكذا كان القادة العسكريين يحكمون البلد في كل مكان عن طريق قادة المناطق والمواقع والمكاتب العربية . كان هـذا النظام يجد ما يبرره في الحرب الدائمة منذ عام ١٨٣٩ وفي اهمية الجيش

داخل المستعمرة ، حيث بلغ تعداد الجنود في الجزائر سنة ١٨٤٥ حوالي ٩١٠٠٠ جندي مقابل ٩٦٠٠٠ مدني فقط . ادت هذه الاهمية العددية الى الاهمية الاقتصادية : حيث لم يستخدم الجيش لانجاز الاعمال الكبرى (كالجسور والطرق) فحسب ، بل اعتبر بحق سوقا هائلة عاش عليها عدد كبير من المواطنين الاوربيين .

خلف هذه الواجهة المؤلفة من حوالي (٢٠٠٠٠٠) اجنبي ، استمرت حياة السكان الجزائريين الذين دلت الاحصائيات الاولية على ان تعدادهم كان في حدود ثلاثة ملايين نسمة . تعتبر الاغلبية الساحقة لهؤلاء من القرويين الريفيين ، وخاصة بعد المضايقات واعمال السلب والنهب التي ادت الى نزوح المواطنين الاصليين من المدن . لذلك تفرغ الاهالي الجزائريون خاصة لزراعة الحبوب وتربية المواشي . كانت الحياة الحضرية هي الغالبة بشكل عام في منطقة « التل » (Tell) ، مع وجود حياة متنقلة في الخيام . اما في الجنوب ، في السهول العليا وتخوم الصحراء فهناك بدو رحل يتنقلون بصورة مستمرة في مناطق واسعة طلبا للكلا .

ينقسم هذا الشعب ظاهريا الى عدد كبير من الوحدات ، اهمها القبيلة . الا انه موحد من حيث اللغة والدين والمبادلات الثقافية والتجارية والكراهية المشتركة للعدو المشترك ، كذلك كان يجمعه شعور بالانتماء الى قومية واحدة هي القومية الجزائرية مع الاحترام والولاء للامير عبد القادر في الواقع ، كان الشعب كله يرزح تحت نير السيطرة الفرنسية : اعمال تدمير بسبب العمليات الحربية ، ضرائب باهظة ، واحكام جائرة تركت البلاد في وضع من العنف والبؤس لم تعرف لها مثيلا في ظل العهود السابقة . صحيح ان الشعب كله لم يشعر بعد بالصدمة المباشرة للاستعمار ، الا في بعض المناطق المحدودة ، الا ان هذه الامثلة نبهت الاذهان ، وخاصة مثال سهل الجزائر و « ميتيدجا » (Mitidja) وهل كان بامكان الجزائريين ان يتجاهلوا الضجة التي تثيرها حولهم المناقشات والخلافات الدائرة بين سادتهم الجدد حول الكتل البشرية الاوروبية المزمع اقامتها في افريقيا .

في خريف عام ١٨٤٥ ، لم يكن الراي العام في المستعمرة مشغولا بالصعوبات التي يمكن ان تنجم عن التذمر المتزايد للسكان الاصليين . لقد كان المسؤولون ينظرون الى ذلك كمسألة عادية من المسائل المطروحة عليهم ، وليس كمسألـة اساسية يتوقف عليها مستقبل الاحتلال الفرنسي .

في هذا الجو المشحون ، انفجر في شهر ايلول من عام ١٨٤٥ ما اصطلح على تسميته « بالعصيان الكبير » . وهكذا اشتعل النصف الغربي للجزائـر حتى منتصف عام ١٨٤٦ ، مرغما الفرنسيين على بذل جهود مضنية لاخماده . اعتبرت هذه الاحداث منعطفا هاما في كفاح الشعب الجزائري ضد الغـزاة . خلال هذه الشهور الدامية ، رأينا في الوقت نفسه نوعا من المقاومة المنظمـة برئاسة الامير عبد القادر باسم وحدة الدولة والشعب الجزائريين ، بالاضافة الى عمل عفوي قامت به القبائل من تلقاء نفسها معربة عن رفضها للسيطـرة الاجنبيـــة .

ازاء اعمال التمرد هذه ، قام « جيش افريقيا » بالرد وفق مبادئــه الخاصة للقمع .

١ ــ جيش افريقيا والشعب الجزائري

آ ــ نقاط القوة والضعف لدى جيش افريقيا سنة ١٨٤٥ :

في عام ١٨٤٥ ، كان هذا الجيش يعمل وفق التنظيم المقرر في ٢٨ حزيران ١٨٤٢ : في القمة ، قائد اعلى هو في الوقت نفسه حاكم عام للجزائر ، تحت امرته ثلاثة جنرالات برتبة لواء في كل من مدينة الجزائر ووهران وقسطنطينية، يتبع لهم عمداء قادة الفروع (Subdivision) ، كما يتبع هؤلاء قادة الدوائر (Cercles) . لقد كان لهذا التنظيم ، الذي يعتمد على المبدأ الاقليمي اكثر من اعتماده على الوحدة التكتيكية ما يبرره في اضطرار الجيش الفرنسي لادارة البلاد واخضاعها في الوقت نفسه ، وخاصة بعد تدمير كافة البنيات السياسية خلال الحروب السابقة .

كان هذا الجيش كبيرا ، حيث بلغ تعداده في اول ايلول من عام ١٨٤٥ ، حوالي (٩١٠٠٠) رجل . انه جيش حديث يستمد مبادئه في الانضباط والاقدام من القيم التي استخلصت من عهدي الثورة والامبراطورية . اما اسلحته فتضمن له ، رغم تطورها البطيء آنذاك ، تفوقا تاما وامنا كبيرا في القتال ضد مواطنين مازالوا يعتمدون كليا على الصناعات اليدوية . رغم التفوق الفرنسي الساحق من كافة النواحي التقنية ، فقد احتاج جيش افريقيا الى سنوات عديدة لكي يتغلب على بطولة المقاتل الجزائري ، ولكي يتوصل الى تحطيم متانة البنيات الصامدة للمجتمع الجزائري ، ويرغمه اخيرا على الرضوخ للسيطرة الاجنبية . الا ان هذه الحرب قد ادت الى زيادة فعاليه جيش افريقيا وتماسكه :

التماسك اولا : كان معظم هذا الجيش يتألف آنذاك من اولئك الذين

اطلقت عليهم تسمية « الافريقيين القدماء » ، اي المتحاربين المتمرسين في الحملات العسكرية الافريقية ، والذين كانوا ينظرون بشيء من التعالي والازدراء الى كافة القادمين الجدد الذين كانوا ينتقدون طرقهم بشكل علني . ونجد هذا القدم في صفوف قوات الاحتلال على كافة المستويات : فمن اصل ٢٠ شخصا يتمتعون بمسؤوليات كبرى ، يوجد ٧ اشخاص خدموا في افريقيا اكثر من ١٠ سنوات ، وقد حقق اثنان من هؤلاء تقدما سريعا ، وهما « لامورسيير » و « يوسف »حيث بدأ الاول كملازم ثان ، والثاني كمترجم من ابناء البلاد .

كذلك ينطبق هذا الكلام على العقداء : فمن أصل ٢٨ ، هناك ١٢ كان لديهم اكثر من ١٠ سنوات في افريقيا . الا ان المهم هنا ان عدد قليلا من هؤلاء القادة تسلموا قيادة فعلية بعد ان تأججت نيران الحرب خلال سنوات ١٨٤٠ ــ ١٨٤١ . وهذا يعني ان تأهيلهم يعود الى تلك السنوات التي وضعت خلالها الاستراتيجية المنسجمة مع سحق المقاومة الجزائرية بكافة الوسائط .

في عام ١٨٤٥ ، كانت القيادة قد اكتسبت خبرة جيدة مما جعلها تفتخر بانتصارها على الامير عبد القادر . كما كان القادة راضين عن الترفيعات السريعة التي امنها لهم انتصارهم : فقد اصبح « لامورسيير » جنرالا برتبة لواء وهو لم يتجاوز السابعة والثلاثين من عمره ، بينما اصبح « بيدو » لواءا في التاسعة والثلاثين ، ويوسف عميدا في الاربعين . اما « سان ــ ارنو » ، الذي وصل الى افريقيا فيعام ١٨٣٧ برتبة نقيب، فقد رفع الى رتبة عقيد فيعام١٨٤٤ .

تحت هذا المستوى يوجد رجال القطعات الذين يتضمنون ايضا نسبة كبيرة من « الافريقيين القدماء » . من هؤلاء بالذات ، يؤخذ القسم الاكبر من صف الضباط والجنود « والافواج افريقيا » : فهم الاغلبية في سلاح الفرسان، حيث يشكلون في عام ١٨٤٥ سبعة افواج من اصل تسعة . اما المشاة الدائمة فلم تكن تتجاوز ١٥ فوجا ، بينما كان هناك ٥٠ فوجا مفرزين من فرنسا . الا ان العناصر الجيدة ذات الخبرة والمراس فقد كانت تبقى في الجزائر بأمر من القيادة بعد انتهاء خدمتها خارج الوطن الام .

ومما زاد في تماسك هذا الجيش آنذاك احتواءه لعدد قليل جدا من سكان

البلاد الاصليين اقل من ٨٠٠٠ رجل ، بين فرسان ورماة ، نصف كوادرهم من الفرنسيين حتى رتبة ملازم اول ، ومن الفرنسيين بالكامل بالنسبة للرتب الاعلى . وقد كانت هذه الوحدات نفسها مأمونة الجانب لان افرادها مشبوهون بالنسبة للسكان الجزائريين وليس لهم من مخرج سوى انتصار الفرنسيين . الا ان قيمتهم القتالية كانت ضعيفة آنذاك .

الفعالية ثانيا : تنجم هذه الفعالية عن الدروس المستفادة من الحرب ومن افكار « بوجو » (Bugeau) ، الرأس المدبر الفعلي في مجموعة ضباط جيش افريقيا رغم اعتراض البعض وشكهم في اصالة افكاره . كان هناك عنصران اساسيان يشكلان دعامتي استراتيجيته وهما : المخافر الدائمة والارتال المتنقلة .

المخافر الدائمة : وعددها في حدود الثلاثين ، موزعة على ثلاثة انساق متوازية : الاول على طول الساحل ، والثاني داخل منطقة « التل » والثالث على تخوم السهول العليا . كان « بوجو » يرى ان هذه المخافر ليست ولا يجب ان تكون سوى قواعد للعمليات ، تكدس فيها الاسلحة والذخائر ، ومنها تنطلق الوحدات للسيطرة على كامل البلاد . وهكذا يتوخى القائد من ذلك منع مرؤوسيه من الاعتقاد بأن المنطقة المحصنة قادرة وحدها على تأمين الهدوء ونشر الامن والنظام في البلاد بدون العمل المباشر للجنود والذي يعتبر وحده كفيلا باخضاع السكان . الا انه يسلم باعتبار هذه المخافر بمثابة نقاط مميزة لمراقبة الجزائر وادارتها . اعتبارا من عام ١٨٤١ ، جعل من هذه المخافر مقرا للمكاتب العربية ، ولكنه لم يكن يطاع دائما من قبل جميع المرؤوسين : ففي بعض الحالات ، كانت المصالح الاقتصادية تطغي على الاعتبارات الاستراتيجية، لذلك رأينا « لامورسيير » يحتفظ رغم اوامر رئيسه بالمخفر المسمى « دجيما غزوات » ، الذي احدث سنة ١٨٤٤ لتسهيل تموين القطعات العاملة ضد المغرب ، لان هذا الموقع يسهل كثيرا عملية الخرق التجاري الذي كان بعض التجار الفرنسيين يحلمون بتحقيقه في الامبراطورية الشريفية .

الا ان القوة الحقيقية لجيش افريقيا هي **الرتل المتنقل** ، الذي كان عليه

ان يلحق اكبر قدر من الاذى « بمصالح » القبائل المتمردة ، وذلك عن طريق حرق المحاصيل الزراعية وقطع الاشجار وسرقة المواشي وتدمير القرى . بهذا الاسلوب ، اسلوب الارهاب والتجويع ، كانوا يأملون في اخضاع السكان . وهكذا نفذ المسؤولون الفرنسيون هذه المهمة دون اي رادع من خلق أو توبيخ من ضمير .

كانت اهمية الرتل تختلف حسب المهمة والظروف ، حيث يقوده قائد كبير (بما في ذلك « بوجو » نفسه) او من قبل النقيب قائد الدائرة الاقليمية . لذلك كان التعداد يتراوح بين ٥٠٠ — ٥٠٠٠ رجل . الا ان الرتل كان يتألف في معظم الاحيان من ١٥٠٠ — ٢٠٠٠ رجل موزعين على ٢ — ٣ كتائب مشاة مع ١ — ٢ كوكبة فرسان ، يرافقها ١ — ٢ مدفع قذاف جبلي محمول على البغال . اما التموين ، فكان يؤمن قدر المستطاع بواسطة قوافل تصادر من القبائل المتمردة نفسها . يمكن ان يضاف الى هذه القوة المشكلة ما يسمى « القوم » (Gaums) ، اي فرسان من القبائل يقدمهم الرؤساء المحليون ، والذين تتم قيادتهم من قبل ضباط المكاتب العربية . لم يكن هؤلاء منضبطين آنذاك ، اذ كانت مهمتهم تنحصر اساسا في نهب المناطق المجتاحة لحسابهم الخاص . كانت اهم ميزة لهذه الارتال هي سرعة التدخل ، مما يسمح للجيش بالرد فورا على اي تحرك مشبوه . يعتبر هذا النوع من الحرب اشبه بحرب العصابات ، كما يجعل الضباط اقرب الى قادة الانصار وليس الى تقنيين حقيقيين في الفن العسكري . وهذا ما يجعلهم أقل قدرة على تنفيذ مناورات واسعة النطاق ، واضعف استعدادا للعمل الحربي المنظم في اوروبا .

الا ان أهم ما يلفت النظر هي العلاقات داخل القيادة : فالانطباع الاول الذي نخرج به من قراءة المراسلات العسكرية يدل على حدة المنافسات وشدة الطموحات والاطماع والرغبة الملحة في الشهرة والترفيع . على مستوى القمة ، كان هناك خلاف دائم بين الحاكم العام « بوجو » والمارشال « سولت » وزير الحربية . وفي الجزائر نفسها ، نجد الخلاف مستحكما بين « بوجو » و « لاموريسير » قائد فرقة وهران . اما جوهر الخلاف فيمكن ان يكون ابعد

من مسألة اشخاص : جنود ـ فلاحون ونظام عسكري من جهة ، ثم مجتمعات رأسمالية ونظام مدني من جهة ثانية . ولكن ما قيمة هذا الخلاف في عهد يعتبر من الوهم العثور فيه على مستوطنين او على رؤوس اموال ، وحيث نجد « بوجو » و « لامورسيير » متفقين على اعتبار الهدف الاول هو اخضاع الجزائريين ؟ لذلك يبدو ان المسألة الاساسية هي مسألة صراع نفوذ هدفه الحكم العام نفسه . كان هذا رأي (سان ـ ارنو) الذي كتب يقول : « لا يوجد في افريقيا حزبان بل رجلان . . . » كذلك نجد هذه النزاعات على كافة المستويات كالخلاف في اقليم « تلمسان » بين المقدم « برال » (Barral) والمقدم « مونتنياك » (Motagnac) ، والذي يفسر لنا كارثة « سيدي ابراهيم » ، لان هذا الاخير لم يكن راضيا عن كونه مرؤوسا لزميله لمجرد كونه اقدم منه بالرتبة السابقة .

قد تكون هذه المنافسات مألوفة في كل وسط مهني مغلق ، الا ان الجديد هنا هو نوع السلطات التي تنم عنها : اذ يبدو ان السلطة الفعلية لا يمكن ان تمارس الا في التقسيم الاساسي الذي هو « الدائرة » . فقائد الفرع ، الذي يضم عدة دوائر ، ليس في الواقع رئيسا الا على دائرة واحدة هي تلك التي يوجد فيها مقره الشخصي . وهو يترك عمليا لمرؤوسيه كافة المسؤوليات في الدوائر الاخرى . هكذا يتصرف ، على سبيل المثال ، « سان ـ ارنو » ، رئيس فرع « اورليان ـ فيل » ، تجاه « كونروبير » المسؤول عن « تيناس » .

على ضوء هذا الوضع ، لا نجد امام الجنرالات (الالوية) غير دور محدود اذا لم يكن تحت تصرفهم الرتل المتنقل الاكبر في الاقليم الذي يراسونه . هذه القوة هي التي تؤمن لهم امكانية القيام بمناورات واسعة النطاق او الاسراع لنجدة هذه المنطقة او تلك . لذلك رأينا « بوجو » (الذي يجب عليه كقائد اعلى ان يكتفي بالتنسيق العام للعمليات) يصر على ان يكون له رتله الخاص لكي يمارس دورا ملموسا فعالا . وهو لم يستطع تحقيق ذلك الا بالموافقة الضمنية للجنرال « بار » ، قائد مقاطعة الجزائر ، الذي تخلى له عن كافة مسؤولياته العسكرية . وهذا ما حدا بالبعض لان يأخذوا على المارشال تصرفه كقائد رتل اكثر منه كحاكم عام للجزائر .

على ضوء ما تقدم يمكن القول ان شعور التبعية الحقيقية قد تضاءل لدى هؤلاء الضباط مفسحا المجال امام مجرد مظاهر احترام خارجي . وهكذا كان ذلك النظام السائد آنذاك اشبه بأنظمة القرون الوسطى التي كان يتبعها الملوك مع كبار اتباعهم ، او ما كان يطبقه الاتراك في الجزائر مع العائلات المحلية الكبرى .

هذا الاسلوب القديم نفسه ، نجده ايضا في تنظيم خدمات الجيش الافريقي : فبسبب نقص العدد اللازم من السائقين والرواحل ، نجد القوافل المصادرة من السكان بواسطة ضباط المكاتب العربية ، تقوم بتموين المخافر . لقد كان كل رتل يخرج للعمليات يحمل معه مؤونته لمدة عشرة ايام . الا ان هذه المؤونة كانت تنفذ خلال وقت اقصر من ذلك الامر الذي كان يؤدي دائما الى تشكيل رتل مساعد يسمى « رتل التموين » ، مهمته تزويد الحملة بما يلزمها من اقرب مخفر مجاور . وهكذا ، في ربيع عام ١٨٤٦ ، كان الجنرال « يوسف » ، الذي يجوب منطقة السهول العليا في اقليم الجزائر العاصمة مع حوالي ٢٠٠٠ رجل ، يتزود بالمؤن بصورة منتظمة من مخفر « بوغار » ، بواسطة رتل خاص تحت قيادة المقدم « كربوسيا » (Carbuccia) . ولكن هذا الاسلوب لا يمكن ان يؤمن التموين الصحيح بالغذاء ، حيث كانت الاطعمة تفسد على الطريق ، فلا يصلح للاكل سوى (٦٥٠٠٠) جرابة من اصل (١٠٠ر٠٠٠) على سبيل المثال . خلاصة القول ، انه كان لا بد من اعتماد الجندي في طعامه على السكان المحليين . كان هذا الامر ممكنا وميسورا في منطقة « التل » ، حيث السكان الكثيرون والموارد المحلية الكافية ، اما بالنسبة للعمليات في الجنوب ، حيث القبائل المتنقلة باستمرار ، والتي تخلي الطريق امام القوات المتقدمة ، فكان التموين سيئا جدا : الامر الذي كان الجنود يضطرون معه لاكل الجرذان والافاعي واليربوع . اما لحم البغال ، فكان يعتبر وليمة دسمة فاخرة . كذلك كان نقص المياه والمراعي يؤدي الى خسائر كبيرة في الخيول ، لدرجة اصبح معها معظم الفرسان راجلين .

وهكذا ادت هذه العوامل المختلفة الى الحد كثيرا من القدرة القتالية

لجيش افريقيا في الاول من اذار سنة ١٨٤٦ ، كان هناك ١٠٫٠٠٠ فرد غير جاهزين من اصل ١٠٠٫٠٠٠ .

كان هذا الجيش بصورة عامة اداة مكيفة مع مهمتها ، ولكنه كان يتآكل سريعا . كذلك لم تكن لديه قدرة على خوض القتال ضد جيش حديث ، وذلك بسبب افتقاره الى الانضباط والتسلسل القيادي والخدمات . الا انه كان مؤهلا تماما للقتال ضد العصابات ، حيث تعتبر السرعة والحركية من الاسلحة الاساسية . وستظهر هذه السمات بوضوح عند دراستنا « للتمرد الكبير » الذي قام به الشعب الجزائري .

ب ـ المقاومة الجزائرية :

ماذا يمثل الشعب الجزائري في مواجهة هذا الجيش المحترف ، المدرب جيدا والواثق من قوته ؟ انه يمثل وزنا لا يستهان به ، لانه يمتلك طاقة عسكرية هامة وارادة قوية للنضال والكفاح .

بالنسبة للطاقة العسكرية ، اثبتت الاحصائيات المتعلقة باقليمي الجزائر العاصمة وقسنطينية ان نسبة المحاربين بلغت ٢٠٪ من مجموع السكان . اذا عممنا هذه النسبة على مجموع الجزائر ، نحصل على مجموع قدره ٦٠٠٫٠٠٠ مقاتل من اصل ثلاثة ملايين نسمة . اذا حذفنا من هذا الرقم المناطق التي لا تمثل تهديدا ضد الفرنسيين لعدم وجود مواقع عسكرية فيها (كمناطق الجنوب والقبائل) ، يبقى لدينا حوالي ٤٠٠٫٠٠٠ مقاتل جميعهم من المحاربين المهرة على الصعيد الفردي ، والذين اكتسبوا خبرة جيدة من خلال الحروب المستمرة بين القبائل ، اضف الى ذلك ما يتمتعون به من صفات الصبر والتحمل نتيجة حياتهم القاسية وشظف العيش وقسوة الطبيعة . ولكن الى اي مدى يمكن ان يشكل هؤلاء خطرا حقيقيا على السيطرة الفرنسية ؟ من البديهي ان محاولة منفردة لا بد ان يكتب لها الفشل : فالقبيلة ، التي تعتبر الوحدة الاساسية ، لا تضم اكثر من الف محارب ، اما اتحاد القبائل فلا يضم اكثر من ١٠٫٠٠٠ ـ ١٠٠٠ رجل .

كان الدين الاسلامي يشكل اساس وحدة الجميع ، ولكن لا بد لهذا الشعور بالانتماء الى مجتمع اسلامي واحد من ان يترجم الى مؤسسات لكي يكون فعالا . لقد كان هناك في تلك الفترة مرتكزان اساسيان لهذه الوحدة وهما : الامير عبد القادر والجمعيات الدينية .

كان الامير عبد القادر مقيما آنذاك في المغرب ومعه حوالي عشرين الفا من اتباعه يعسكرون في مخيم متنقل يسمى « الدائرة » . وقد وصف احد الفارين ورع الامير وسلطته بالعبارات التالية : « لباسه بسيط يتألف من حيك(١)وبرنس اسود . وهو يقول دائما بأنه لن يستسلم ابدا حتى لو لم يبق لديه شيء (...) لا توجد حراسة على الخيام ، ولكن عيونه منتشرين في كل مكان ، وكل من يحاول الفرار تقطع رأسه على الفور » . رغم الهزائم التي لحقت به ، فقد بقي لديه اعوان مخلصون من الفرسان المدربين ، لذلك بقي القوة العسكرية الاولى في الجزائر . كانت القبائل تقاتل في مناطقها بصورة عامة ، بينما بقي الامير يتمتع بحرية كبيرة للمناورة ، تمكنه من اخذ مبادهة العمليات واستدراج اعدائه الى حيث يريد .

اما القوة الثانية الاكثر انتشارا ، فهي تلك المكلفة بمحاولة توحيد موارد الشعب الجزائري ضد الغزاة المحتلين . لقد كانت هذه القوة عبارة عن جمعيات دينية لها اتباع يسمون « الاخوان » ، يقودهم رؤساء « مقدمون » يتبعون بدورهم لقادة روحيين موزعين في مناطق كثيرة من العالم الاسلامي . اما المؤسسات التي تشكل شبكة منسقة الحلقات فهي « الزوايا » التي كان لها تأثير كبير في الجزائر ، واما « الاخويات » أو الجمعيات الدينية التي كان الفرنسيون يعطونها اهمية كبرى فهي « الطيبية » و « القادرية » . فالاولى كانت المحرك الاساسي للتمرد الذي حدث في منطقة « ضهره » سنة ١٨٤٥ ، بينما كانت الثانية تتبع للامير عبد القادر نفسه . الا انه من الصعب الفصل بين « الاخوان » وبين جميع اولئك الرجال ذوي النشاطات الغامضة والشحاذين الجوالين والمغنيين والتجار المتجولين والطلاب الذين ينتقلون من « زاوية »

---

(١) ــ الحيك : هو ثوب ابيض خارجي يرتديه ابناء شمالي افريقيا .

الى اخرى . كان هؤلاء ينتقلون وينشرون اثناء تنقلاتهم اخبار الهزائم الفرنسية وانتصارات المسلمين . كذلك كان بعضهم يحمل الرسائل الموجهة من قبل الاعضاء البارزين في الجمعيات، ومن قبل الامير عبد القادر نفسه . وهكذا نرى ان هؤلاء كانوا يشكلون قوة لا يستهان بها ، وخاصة من الناحية الدعائية .

وفي بعض الاحيان ، كان يخرج من صفوف هؤلاء رجال حرب يطلق الفرنسيون عليهم تسمية « شرفاء » (Cherifs) ، اشهرهم « بومزه » ، قائد حركة العصيان المسلح في « ضهره » ، والذي كان يملك مؤهلات تنظيمية ممتازة .

لا بد من التنويه هنا بالشرخ الذي يفصل عناصر المقاومة عن الغزاة . يعود هذا الشرخ الى عوامل تاريخية موروثة ومعقدة ، ولكن احداث سنوات ١٨٣٠ – ١٨٤٠ قد ساهمت في توسيع الهوة . كان تأثير جمعية « الطيبية » ، التي لعبت دورا كبيرا في التمرد ينحصر في غرب البلاد : فقد كانت في اوج قوتها في منطقة وهران ومناطق « اورليان – فيل » و « ميليانا » ، ثم تضعف باتجاه الشرق ، حيث تسيطر جمعيتان اخريان هما : « ديركاوا » و « الرحمانية » . كذلك الامير عبد القادر لم يكن تأثيره كبيرا الا في الاقاليم الواقعة تحت سيطرته والتي تعتبر منطقة « تيتيري » (Titteri) حدودها القصوى . واذا كان قد احتفظ بدعم ، عند تخوم منطقة القبيلية (Kalylie) ، في شخص « خليفته » بن سالم ، مرابط بني دجعد (Beni Ddjaad) ، فان نفوذ هذا الاخير لم يكن كاملا في تلك المنطقة . اما اقليم قسطنطينية ، الذي تسيطر عليه العائلات الكبرى ، وخاصة اولاد مقران في مدجنة) و « في زبيان » فقد بقي بعيدا عن الاضطرابات التي تحرك مدينتي الجزائر ووهران . ويلاحظ هنا ان الشائعات الدائرة آنذاك بين سكان قسطنطينية تدور خاصة حول احتمال حدوث تدخل تركي .

هل كان هناك تفاهم ، في سائر المناطق ، بين الامير عبد القادر والجمعيات؟ يقول النقيب « ريشارد » ان جمعية « الطيبية » ، التي تعتمد على النبوءات ، انتظرت سقوط الامير لكي تنتقل الى العمل ، وان الشخص الرئيسي الذي

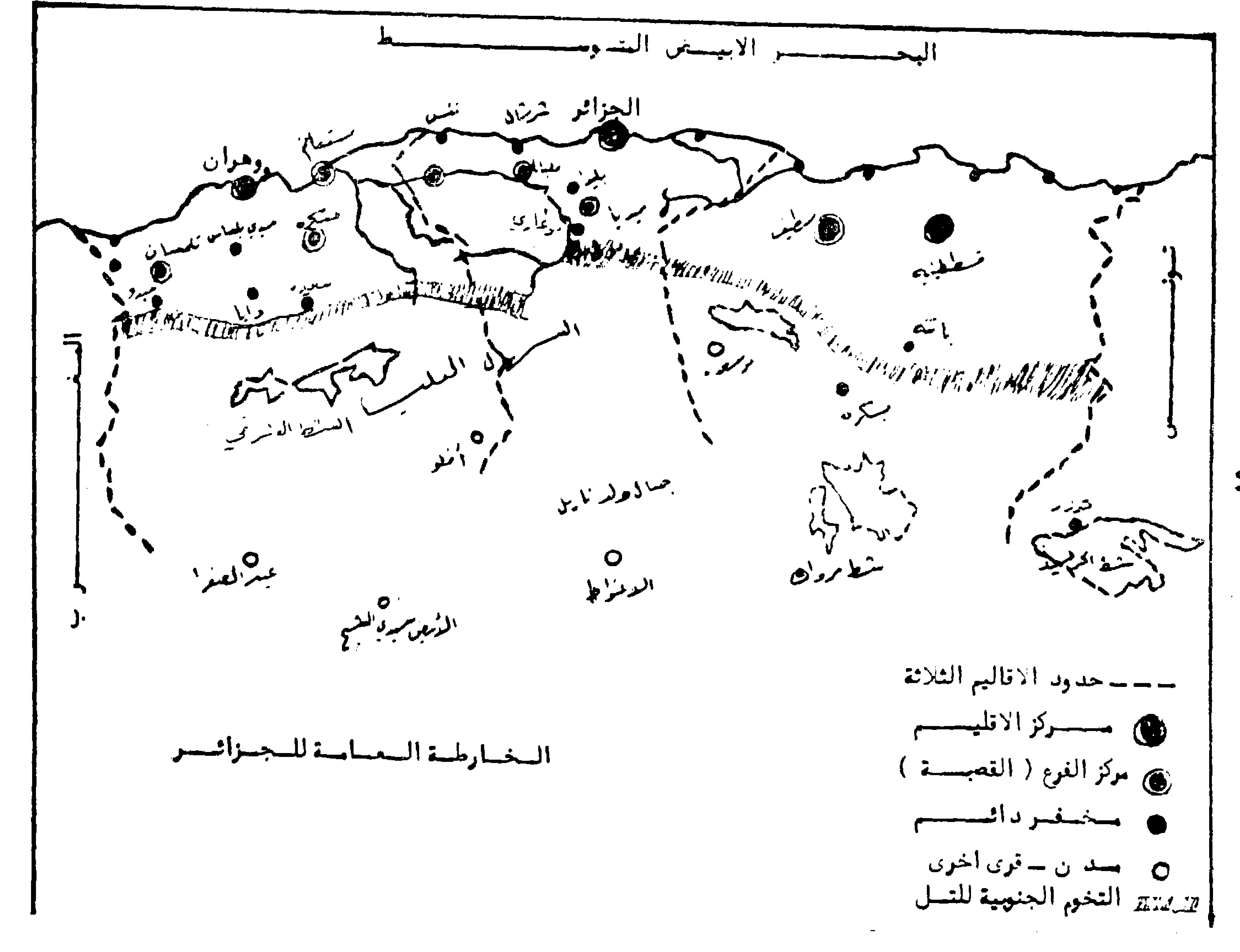
هذا المناخ هو « بومزه » الذي بدأ يتصدى لنفوذ الامير . الا ان النقيب ريشارد يعترف بأن « بومزه » قد قبل ، لفترة معينة ، ان يصبح تحت قيادة الامير عبد القادر . وهكذا يمكن القول بأن هاتين القوتين ، وان لم تتعاونا معا ، او بالاحرى لم تعمل الواحدة تحت قيادة الاخرى كانتا ذات هدف مشترك .

على ضوء ما تقدم ، كان نصف السكان ، الذين يمثلون حوالي ٢٠٠٫٠٠٠ محارب ، على استعداد للثورة المسلحة . وقد ادرك الجنرالات الفرنسيون ذلك ، فحشدوا في هذا القطاع ما يقرب من ٨٠٪ من قواتهم : اي ٧٠٫٠٠٠ رجل من اصل ٩٠٫٠٠٠ في خريف عام ١٨٤٥ ، ثم ٨٠٫٠٠٠ من اصل ١١٠٫٠٠٠ عند بدء العصيان .

كانت هذه النسبة في القوى تقلل كثيرا من زهوة انتصارهم الاخير والنهائي .

ادت الظروف الجوية السيئة ، وخاصة خلال شهري كانون الثاني وشباط ، حيث اجتاحت الريف سيول من الامطار الغزيرة ، الى اعاقة عمليات الجيش الفرنسي ، ولكنها لم توقفها تماما لان اصل الجنود من مناطق اكثر امطارا . اما في الصيف ، من شهر تموز الى ايلول ، فقد ادى نقص المياه والحرارة الخانقة وعدم وجود المراعي للخيل الى وقف كل عملية جدية . كانت تلك هي الفترة التي اختارها الضباط للذهاب باجازات الى فرنسا بينما قام آخرون بمغادرة مواقعهم الداخلية الجافة الى مناطق الطف جوا على الساحل فقد كان من عادة « سان ــ ارنو » مثلا ان ينقل مقر قيادته في مثل هذا الفصل من « اورليان ــ فيل » الى « تينيس » . من حسن حظ الفرنسيين ان هذا الفصل قد انطبق مع الفترة التي اجبرت الشؤون الزراعية القبائل على التخلي مؤقتا عن القتال للتفرغ للحصاد وجمع المحاصيل . وفي الوقت نفسه ، قام سكان السهول العليا بمغادرة « موطنهم الشتوي » الى المناطق الشمالية حيث تجد قطعانهم الكلأ والعشب ، وحيث يمكن ان تتم عملية شراء الحبوب الضرورية للاستهلاك السنوي . وهكذا كانت تلك فترة هدنة وهدوء من الجانبين . كذلك كان الامر بالنسبة لنهاية العام ، التي خصصت للفلاحة من تشرين الاول حتى كانون الثاني ، على ضوء سقوط الامطار .

عكست الحرب كذلك الاختلاف الكبير في نمط الحياة ومفهومها : فمن جهة كان هناك جيش حديث وحده انضباط صارم في القتال ، يتابع بمثابرة وعناد هدفا واحدا هو القضاء على المقاومة المعادية ، اما في الجانب الآخر ، فنجد محاربين تعودوا اساسا على الحروب بين القبائل ، حيث يحتل الشرف والرغبة في الغنائم والتنافس العائلي مكان الصدارة . هنا كان المنتصر يرضى عن نفسه تماما عندما يلوذ خصمه بالفرار ، فلا يفكر في تدميره مطلقا . وعلى الرغم من ادراك الكثيرين ومناداتهم بضرورة تغيير هذا السلوك ازاء الغزاة المسيحيين ، فقد ظل الطبع يغلب التطبع كما بقيت العادة هي السائدة في معظم الاحيان . ولا شك في ان هذا كان من اهم نقاط الضعف لدى المقاومة الجزائرية.


البحر الابيض المتوسط
المغرب
تونس
الجزائر
شرشال
تنس
وهران
مستغانم
معسكر
سيدي بلعباس
تلمسان
سعيدة
دايا
بوغاري
البليدة
المدية
السهول العليا
الشط الغربي
أفلو
جبال أولاد نايل
عين الصفرا
الأبيض سيدي الشيخ
الأغواط
بوسعادة
سطيف
قسنطينة
باتنة
بسكرة
شط مروان
شط الجريد
حدود الاقاليم الثلاثة
مركز الاقليم
مركز الفروع (القصبة)
مخفر دائم
مدن – قرى اخرى
التخوم الجنوبية للتل
الخارطة العامة للجزائر

٣ ـ وقائع العصيان المسلح (الثورة)

اندلعت الثورة في ٢٣ ايلول من عام ١٨٤٥ ، وهو اليوم الذي تم فيه سحق رتل صغير (حوالي ٥٠٠ رجل) بقيادة المقدم « دي مونتانياك » في سيدي ابراهيم من قبل فرسان تابعين للقبائل الغربية تحت امرة الامير عبد القادر الذي اجتاز الحدود مؤخرا لم تمض على هذا الحادث ايام قلائل حتى امتدمت الحركة لتشعل اقليم وهران بكامله ، بالاضافة الى غـرب اقليـم الجزائـر العاصمة ، وخاصة منطقة « اورلييان فيل » حيث عاد « بومزه » للظهور .

هل يمكن من خلال هذه الثورة استخلاص بعض السمات المميزة لتصرف القبائل وطبيعة عملها ؟ يبدو ان نمط حياة السكان يملي عليهم الموقف المتبع : ففي المناطق الجبلية ، كان الهجوم المسلح العنيف على الارتال الفرنسية هـو الطابع الغالب لعمل الثوار ، وابرز مثال على ذلك هو قيام افراد من « فليتا » التابعين لمنطقة « مستغانم » بمهاجمة رتل فرنسي بقيادة العقيد « بورجولي »، الذي خسر ٣٠ قتيلا و ١٠٠ جريح . اما في المناطق السهلية ، فكان الهروب هو التعبير عن الثورة : حيث كان رد الفعل الغريزي للقبائل هو التملص مـن الاشتباك والمجابهة مع الفرنسيين . في المنطقة الغربية ، استفاد الامير عبـد القادر من المغرب (مراكش) المجاور لكي يجتاز الحدود بأكبر عدد ممكن من الرجال ، رافعا بذلك الى المستوى الاستراتيجي ما كان في البداية مجـرد حركة غريزية . كانت اعمال « التملص » هذه تعتبر في نظر الفرنسيين وكأنها لا تقل خطورة على سيادتهم من الاعمال الهجومية نفسها ، فتهرب المواطنين من اشراف الجيش ، الذي يعيش على موارد البلاد ووسائط نقلها ، يعني شل هذا الجيش وخنقه . ولا شك في ان هذا الخطر كان ماثلا في ذهن «لاموريسير» خلال صيف عام ١٨٤٥ ، عندما رفع تقريره الى وزير الحرب الفرنسي قائلا :

« أذا أستمر الوضع على ما هو عليه من تهرب السكان ، فستجد أنفسنا وسط صحراء مقفرة ، بدون موارد في بلاد اقفرت من اهلها ، عندئذ لن تعدو الطرق آمنة ، ولن تعود هناك وسائط كافية لنقل تموينا من المدن الساحلية ، وكأننا سجناء في مواقعنا ، ليس من قبل العدو بل من قبل جيش من المغيرين المتعشقين لمبدأ الكر والفر » . وهكذا كان الشعب الجزائري يجابه هذه « الارتال الجهنمية » بواسطة المقاتلين المستبسلين او الفراغ المخيف . وهذا اسلوب جديد من القتال لا بد للجيش الفرنسي ان يتأقلم معه .

تحت تسوية الوضع على صعيد الافراد بسرعة كبيرة ، حيث حصل « بوجو » على كافة التعزيزات التي طلبها . فخلال فترة لا تتجاوز الثلاثة اشهر ، انزل في الجزائر حوالي (١٨٠٠٠) رجل : ٦ افواج مشاة (٩٠٠٠) رجل ، فوجان من الفرسان (١٢٠٠) رجل ، حوالي ١٠٠٠ رجل من عناصر الشؤون الادارية بالاضافة الى ٦٠٠٠ رجل كاحتياط لتعويض الخسائر وسد الثغرات . وفي شباط من عام ١٨٤٦ ، عاد الوزير فأرسل الى المارشال (٣٠٠٠) جندي مشاة مع فوج جديد من الفرسان .

بهذا وصل تعداد جيش افريقيا في مطلع حزيران الى (١١١٠٠٠) رجل .

على الصعيد الاستراتيجي ، لم يكن الوهم يداعب اذهان القادة : فالمسؤول الاول عن الثورة هو الامير عبد القادر ، والوسيلة الوحيدة لاخمادها هي سحق القبائل .

كان هذا هو مغزى الرسالة التي وجهها « بوجو » الى « سولت » في ٦ تشرين الاول ، حيث كتب يقول « اما بالنسبة للقبائل الجزائرية ، فخطتي اذا وافقت عليها الحكومة) ان ترحم هؤلاء ولن تهادنهم ، واعني بذلك انني سأهاجمهم في عقر دارهم دون اية هوادة ، لكي احصل على اكبر قد رممكن من الاسرى اخرجهم من البلاد بلا عودة .

فالاحداث التي جرت وتجري تثبت لنا اننا لن نستطيع الاعتماد على ولاء العرب » .

كان « بوجو » مصرا بالدرجة الاولى على تجريد القبائل من أسلحتها ، لذلك كتب يقول : « سوف اطلب من القبائل الثائرة كافة خيولها الحربية وبنادقها . صحيح ان هذا قد يؤخر خضوعها ، ولكنني افضل ان يأتي هذا الخضوع متاخرا على ان يكون مأمونا . لذلك لست مستعجلا ابدا » . لقد كانت هذه السياسة ضربة قاسية لقبائل سلسلة جبال « اوارسيني « الواقعة بين » ريو » العالي ومينا (بني اورغر ، بني تفرين ، بني مايده) . الا انها امتدت أبعد من ذلك : حيث فرض على بني لسن من دائرة تيناس ، وآل بيتيامن دائرة ميليانا ان يقدموا جميعهم ٢٠٠ بندقية أي ما يعادل كل ما لديهم من اسلحة . ولكن هذه السياسة لم تطبق على جميع الثوار : ففي اقليم وهران ، اضطر « لامورسيير » لان يمنح الامان لآل « طرارء » ، المسؤولين الرئيسيين عن خسارة رتل مونتانياك ، وبشروط أعتبرها الكثيرون مفرطة في السخاء .

بدأت عملية القمع هذه في جو مشحون بالخلافات والشكوك . فقد جاءت الاحقاد القديمة والمنافسات الحادة لتضاف الى تذمر البعض وملل البعض الآخر من سياسة النفس الطويل وهكذا تأجج الخلاف من جديد بين « بوجو » و « لامورسيير » على اثر الصعوبات التي طرأت في اقليم وهران ، واصبح الجو العام السائد لا يسهل تبني خطة اجمالية ، مما جعل المراقبين في وزارة الحربية يقولون : « ان كل الدلائل تشير الى ان الحاكم العام للجزائر يبدو غير واثق من مشاريعه وعلى خلاف دائم مع معاونيه ومرؤوسيه الذين فقدوا روح المبادهة واخذوا يتخبطون في متاهة التردد منتظرين الاوامر من المستوى الاعلى . من المرجح ان هناك تسيبا مقصود او عفويا يسود بين القادة العسكريين . « الا ان هذه الجوقة من النقاد والمزاودين لا يمكن ان تحجب الواقع والحقيقة : صحيح ان الاستياء والمنافسات موجودة فعلا ، ولكنها ليست وحدها المسؤولة عن عدم تنسيق الجهود الذي يعتبر ناجما عن طبيعة النزاع نفسه . فصعوبة الاتصالات هي التي جعلت « بوجو » يحتاج الى ما لا يقل عن شهرين لكي يدخل في اتصالات خطية مع « لامورسيير » الذي كانت تفصله عنه مناطق خاضعة للثوار .

اضف الى ذلك عدم صحة ما ورد اعلاه من تردد القادة في العمـل ، لان الكثيرين من هؤلاء كانوا يشنون الاغارات بتصميم كبير دون انتظار اوامـر القائـد الاعلى .

وقد كان هذا الاسلوب منسجما في الواقع مع طبيعة الصراع الذي تفرضه الظروف . اما نظام الارتال فقد اخذ طريقه الى التطبيق آنـذاك : فهاهـو « كافينياك » في تلمسان ، « كورت » في سيدي بلعباس ومسكرة ، « جيري » قرب مسكرة ، « بورجولي » قرب ميستغانم ، « كومان » قـرب بليـدا ، « ريفو » حول ميليانا ، « سان ـ ارنو » في منطقة اورليان فيل ، « اربوفيل » و « ماراي » في ديره . اما القادة الكبار ، فقد تكفلوا لنفسهم بالمهمات الاكبر ، حيث كلف « لامورسيير » بمراقبة الخط الواصل بين التل انوهراني وانوادي العالي لـ (مينا) ، بينما اخذ « بوجو » على عاتقه « الشينيف الاوسط » . وقد اعطت هذه المناورات نتائج لا بأس بها الا انه لا بد من القول هنا بأن حدة قتال القبائل قد خفت بطبيعة الحال نظرا لاقتراب موسم الفلاحة والبذار . لذلك كانت تقارير المسؤولين على ارض القتال تبدو متفائلة لدرجة كتب معها المارشال « سولت » يقول : « اعتقد بأن هذا التمرد ، الذي قامت به عـدة قبائل في اقليم وهران ، قد اقترب من نهايته » .

الا ان هذا التفاؤل لم يأخذ بعين الاعتبار الجبارة التي بذلها الامير عبد القادر ، والدور التنظيمي الكبير الذي لعبه فيما بعد ، مما سمح بامتداد الحرب فوق طاقة الجسدية والمعنوية للقبائل . حتى منتصف تشرين الثاني ، كـان الامير قد حصر نشاطه الرئيسي في اقليم وهران ، الا انه ما لبث ان توغل داخل الجزائر وجعل من السهول العليا قاعدة لعملياته . كان الجنوب غنيا بالكلأ انذاك ، كما كان قد اشترى كافة احتياجاته من القمح من منطقة التل ، مما جعل القبائل هناك مستقلة عن سادة الجزائر في الشمال ، وخاصة الفرنسيين . أما القوات الفرنسية فكانت تجد صعوبات بالغة في المناورة داخل تلك المناطق . لذلك كتب النقيب « ويمبفن » يقول : « في هذه المناطق ، يلزمنا ، بدلا مـن المشاة ، ٢ ـ ٣ آلاف من الفرسان لمحاربة العرب بنجاح ، ولقطـع طريـق

الانسحاب في هذا السهل الشاسع على السكان وعائلاتهم ومواشيهم . فكلما تقدمت قواتنا عشرين او ثلاثين فرسخا يكون العرب قد ابتعدوا وتركوا بينهم وبيننا نفس المسافة . ولما كانت الصحراء منتجة في هذا الفصل فانهم لا يشعرون بحرمان كبير عند تقدمهم باتجاه الجنوب ، بل يجدون مناخا اقل برودة » .

وهكذا استطاع الامير عبد القادر ان يوطد سلطته وفق الاساليب التي وصفها الجنرال « ماراي » ، قائد منطقة « ميديا » : كان يرافق الامير دائما ٢٠٠ ـ ٣٠٠ فارس موثوق ، يضاف اليهم ٢٠٠٠ ـ ٣٠٠٠ فارس من القبائل. اما طريقته لبسط سيطرته فكانت بسيطة ومنسجمة مع تقاليد البلاد : قبل كل هجوم على الخصم ، كان يكسب الى جانبه احد الطرفين الاساسيين في كل قبيلة ، ثم ينقض بهجوم مباغت للاغارة على خصمه . وهكذا كان النصر حليفه دائما بسبب السرعة الخاطفة في التقدم ، اما الانسحاب ، فكان يؤمن بشكل دقيق حيث تحدد بوضوح نقاط التجمع وقواعد التموين والهدف الواجب الوصول اليه .

الا ان اختيار الامير عبد القادر لمنطقة الجنوب كقاعدة عمليات لم يكن يجد ما يبرره في الاعتبارات الاستراتيجية وحدها ، فالبادية لها مكانة خاصة في قلوب الشعب الجزائري ، لانها كانت تمثل انبل واشرف اسلوب للحياة آنذاك ، وهو اسلوب البداوة التي تعتبر بحد ذاتها رمزا للتقاليد القتالية للقبائل العربية المناضلة لنشر الدعوة الاسلامية . وهكذا يعطي الامير عبد القادر قتاله مغزى اكثر عمقا ، وهو الدفاع عن مجتمع وثقافة وحضارة .

لذلك كان لا بد لنشاط الامير عبد القادر ، بالمقارنة مع العجز الاجباري المفروض على الفرنسيين ، من ان يعطي ثماره المرجوة : ففي نهاية كانون الثاني ، لم يعد يعترف بالسلطة الفرنسيين سوى قبيلتان من السهول العليا واقليم الجزائر العاصمة هما : آل رحمان وبوعيش . ويبدو ان سلطة الامير قد توطدت نتيجة انضمام « ولدنايل » الذين عين زعيمهم خليفة له ، وهو نفس الزعيم الذي اشتهر فيما بعد بخدمته للفرنسيين بلقب « باش آغا » ولد نايل .

اما الزعماء المحليون الآخرون ، وخاصة « جديد » (زعيم ولد شايب) و « بن عودة » (زعيم ولد مختار) فقد انضموا بدورهم الى السيد الجديد للبلاد بعد ان حاولوا محاربته دون جدوى .

وهكذا اصبح في استطاعة الامير عبد القادر ان يقوم ، انطلاقا من هذه القاعدة ، بتهديد الممتلكات الفرنسية بانقضاضه على منطقة التل عن طريق وديان « ريو » ومينا ونهر الواصل ، او بتوجهه الى ميتيدجا ، لان مخافر سور غزلان وبوسعده لم تكن موجودة آنذاك . هنا كانت توجد ثغرة كبيرة في الجهاز الدفاعي الفرنسي بين « ستيف » وميديا ، تسمح بالوصول دون صعوبة تذكر الى المنطقة القبيلية وقوات بن سالم الموالية في هذه السلسلة من الهجمات ، كانت الاوراق الرابحة للامير عبد القادر هي السرعة والمباغتة والتوفق العددي المحلي ، بالاضافة الى السمعة والهيبة اللتين اكتسبهما بفضل عبقريته وجراته وسيطرته التي دامت عشر سنوات .

في شهر كانون الاول ، ظهر الامير عبد القادر من جديد في سلسلة جبال « وارسينيس » ، وهو يناور بمهارة بين خمسة ارتال فرنسية تعمل انطلاقا من اورليان ــ فيل ، مستغانم ، ريو ، تياريت وميليانا . كانت هذه محرومة تقريبا من الفرسان لان معظم عناصر هذا السلاح كانت ترابط في اقليم وهران بانتظار العمل داخل الاراضي المراكشية . عندئذ قرر « بوجو » تغيير سياسته بسرعة تشرف هذا الضابط القديم وتدل على مرونة كبيرة في التفكير : ففي صباح ١٣ كانون الاول ، كان قد كتب الى وزير الحربية يقول : « ليس هناك من سبيل لارغام الامير عبد القادر على اللجوء الى مراكش سوى انهاك العرب تماما » . وفي برقية عاجلة ارسلها في تمام الساعة السادسة من مساء اليوم نفسه ذكر فيها : « انه لا بد من العمل اولا على اسقاط الامير عبد القادر نفسه او ابعاده خارج البلاد لكي تخضع القبائل » .

في اطار هذا الانقلاب في الاستراتيجية ، ازدادت اهمية الدور الملقى على عاتق الجنرال يوسف ، الفارس الاول في جيش افريقيا . لذلك عهد اليه « بوجو » بقيادة رتل مؤلف من الفرسان والمشاة الراكبة ، بهذه القوات ، انطلق

لمطاردة الامير ، ونجح في الاشتباك معه في معركة « تمدا » ، على مسافة عشرين كيلو مترا شمال ـ غرب « تياريت » ، حيث ارغمه على الانسحاب الى السهول العليا. هذا ماتقوله المصادر الفرنسية على الاقل، الا ان هناك مصادر اخرى تقول ان الامير نفسه هو الذي استدرج الجنرال يوسف الى كمين كاد يؤدي الى كارثة لولا وصول تعزيزات كبيرة من المشاة في الوقت المناسب . مهما يكن الامر ، فان جميع المصادر تؤكد على ضراوة الاشتباك وبسالة اتباع الامير عبد القادر . الا ان قلق الفرنسيين لم ينته بعد : ففي مطلع شهر كانون الثاني ، غادر الامير الجنوب من جديد ، حيث وصل الى السفوح الجنوبية لجبال « جرجورة » مع عدد لا بأس من الفرسان .

اخذ هذا التهديد الجديد الفرنسيين على حين غرة : فالترتيب الدفاعي الذي اقامه « بوجو » ، كان يهدف بصورة اساسية الى تغطية مشارف «انتل»، لذلك كان متقدما كثيرا نحو الداخل كما اسلفنا ، ولم تكن هناك قوات كافيه في « ميتيدجا » . وهكذا ولمواجهة كافة الاحتمالات ، اخطر الحاكم العام للايعاز بتشكيل « وحدات مسير » من العسكريون المحكوم عليهم ومن كتائب الميليشيا . الا ان هذا القرار اثار حفيظة الحكومة وقلقها لانها لم تكن تريد لفت انظار الرأي العام الفرنسي الى احداث الجزائر بهذا الاجراء الذي يدل على مدى الصعوبات والمتاعب التي يعاني منها جيش افريقيا . كذلك ادى هذا القرار الى تأجج النزاع بين المارشال والمستوطنين الذين وجدوا في هذه التعبئة محاولة من المارشال لاخضاعهم لسلطته .

هزم الامير عبد القادر من قبل قوات الجنرال « جانتيل » ، ولم يتمكن من دخول « ميتيدجا » ، ولكنه بقي في المنطقة القبيلية بعض الوقت . الا انه ما لبث ، في نهاية شهر شباط ، ان قرر مغادرة المنطقة بعد ان سمع بالحملة التي جهزها « بوجو » بنفسه لمحاصرته والقضاء عليه . وهنا ترجع المصادر الفرنسية ان رجال القبائل قد ضاقوا ذرعا بالامير وطلبوا منه مغادرة جبالهم لتحويل العاصفة عن انفسهم . اضف الى ذلك ان الفرنسيين كانوا يعلنون كذبا ورياء انهم لا يريدون المس باستقلال القبائل . رجع الامير عبد القادر

الى الجنوب ، حيث أضر للتخلي ، امام زحف العقيد « كامو » ، عن قسم من الغنائم التي حصل عليها من قبائل « الدوير » ، وذلك عند « بوغار » ، ثم توغل عميقا في السهول العليا . عندئذ ، لاحقه رتل الجنرال يوسف ، الذي يضم ٣٠٠٠ جندي مشاة و ٧٠٠ فارس ، معززين بفرسان من « تيتيري » .
كان امام « بوجو » ثلاثة خيارات : اولهما طرد الامير عبد القادر من السهول العليا ، وهذه عملية قد بوشر بتنفيذها فعلا ، أما ثانيها فهو اتمام اخضاع السلاسل الجبلية التي ما زالت تقاوم : « كالوارسينيس » و « ضهرة » و « نوغا » ، واما الخيار الثالث ، وهو الذي كان « بوجو » يفكر فيه منذ شهر ايلول من عام ١٨٤٥ ، فهو الدخول الى اراضي المراكشية والقضاء على «الدايرة» وخاصة بعد ان ظهر جليا (رغم معاهدة « للامغنيه » رفض السلطان عبد الرحمن القيام بتنفيذ عملية الشرطة هذه) .

ازاء هذه الاهداف ، كان لا بد من دراسة الوسائط : صحيح ان الجيش الفرنسي كان منتصرا ، ولكنه كان مرهقا من التعب لدرجة اثارت خوف القادة الذين لم يتعودوا بعد على الحروب الافريقية . لذلك كتب الرائد « لينوبل » (من الفوج ١٦) يقول : « من اصل ٤٥٠ رجلا ، لم يبق لدى سوى ٣٠٥ . اضف الى ذلك ان جراح الارجل قد اخرجت من الصف عددا كبيرا من الرجال ، وقد اصيب ثلاثون رجلا بالحمى ، توفي منهم خمسة » . يضاف الى هذا الانهاك تشتت الوحدات نتيجة المسير بكافة الاتجاهات ، وقد وصف العقيد « لوفلو » هذا التشتت بقوله : « في احد مخافر « ميديا » ، وجدت عدة جنود تابعين لوحدات مختلفة » .

لذلك فرض هذا الوضع وحده القرار المناسب : فعملية مراكش تتطلب قوات كبيرة ، يجب ان تنهي تحشدها على الحدود في منتصف شهر ايار ، بينما وجد « بوجو » انه لا يستطيع ان يحشد الاعداد الكافية في هذا التاريخ ، فأقصى ما يمكن توفيره : ١٢٠٠٠ رجل من فرقة الجزائر ، و ٥٠٠٠ من فرقة وهران . هذا مع افتراض نجاح رتل الجنرال يوسف في اعادة النظام والهدوء الى الجنوب . كل ذلك لم يكن يسمح بالتصدي بنجاح للمقاتلين المراكشيين . علاوة

على ذلك كان هذا المشروع يصطدم بمعارضة حكومية تزداد ضراوة باستمرار .
على ضوء ما تقدم ، اقتنع المارشال بضرورة التخلي عن الحملات الكبرى والواسعة النطاق ، فقرر اخضاع المناطق التي مازالت فيها بعض بؤر المقاومة ، وهذا ما حدث خلال اشهر ايار وحزيران وتموز . ففي مطلع ايار ،تم تجديد رتل الجنرال يوسف لكي يقوم بحملته في جبل « عمور » . وهكذا ادت هذه الحملات الى مغادرة الامير لجنوب اقليم الجزائر ، ثم انتقاله في منتصف تموز الى « الدايرة » . الا ان اخضاع كامل البلاد قد تطلب عشر سنوات اخرى .

الحصيلـــة (النتائــج)

ان الخسائر الفرنسية وحدها هي المعروفة جيدا : من ايلول ١٨٤٥ حتى حزيران ١٨٤٦ ، اي خلال تسعة اشهر من النشاط المكثف ، قتل في المعارك ٤٨٥ رجلا ، وهو عدد ضئيل جدا ، خاصة وان ٣١٢ قتيلا من رتل مونتانياك يدخلون دفعة واحدة في الحساب الا انه توفي في المستشفى ، خلال الفتـرة نفسها حوالي ٤٦٨١ رجلا واذا اخذنا بعين الاعتبار الاشهر الستة الاخيرة من عام ١٨٤٦ ، عندئذ نصل الى مجموع قدره اكثر من ٨٠٠٠ قتيل ، اي حوالي ٧٪ من التعداد العام للقوات (١) .

اما خسائر الجزائريين ، فيصعب تقديرها كثيرا . لقد سجلت وثائـق وزارة الحربية رقم (٥٠٠٠) قتيل . الا ان هذا هو الحد الادنى بطبيعـة الحال ، لانه لم يشمل سوى الجثث التي عثر عليها بعد القتال .

من الناحية المادية البحتة ، كلفت هذه الحرب الطرفين ثمنا باهظا . فقد ارتفعت ميزانية جيش افريقيا من ٧٠ مليونا سنة ١٨٤٥ الى اكثر ٩٠ مليونا في عام ١٨٤٦ . لذلك اثارت هذه الزيادة سخط الدوائر المالية عـلى النظام العسكري الذي فرض على خزينة الدولة تضحيات هائلة في فترة ازمـة اقتصادية . الا ان هذا العبء الذي تحملته الخزينة لا يقارن بالدمار الـذي لحق بالريف الجزائري في تلك الفترة من احراق للبيوت والمحاصيل ونهـب للموارد والمواشي . وقد اضيف على بؤس القبائل عبء المساهمة في ضريبة

---

(١) ـ يبدو هنا بوضوح اعتماد الكاتب على المغالطة وتعمده للغموض عند ذكر الاعداد التي توفيت في المستشفى ، حيث لم يذكر ما اذا كانت الوفاة نتيجة المرض او التأثر بالجراح .

(المترجم)

الحرب التي فرضت كتعويض للخسائر . وتدل الوثائق الرسمية على انه تم جمع مليون ونصف من الفرنكات كغرامة في عام ١٨٤٦ ، فهاهم « بنولنت » مثلا التابعون لدائرة « تنية الحد » ، وقد ارغموا على دفع مبلغ (٥٠٫٠٠٠) فرنكا فرنسيا للحصول على « العفو » . ويمثل هذا المبلغ اكثر من ضعف الضرائب التي طلبت منهم في عام ١٨٥٦ اي بعد عشر سنوات من السلم وفي ظـروف اقتصادية مواتية . ومن الجدير بالذكر هنا ان تعداد هذه القبيلة لم يكن يتجاوز الالف .

ازاء هذه الظروف الحياتية القاسية ، اضطر الجزائريون للخضوع مؤقتا على الاقل . لقد كشف هذا التمرد (الثورة) النقاب عن مجموعة من «المحرضين» الذين نظمت باسمائهم لوائح حفظت بعناية في المكاتب العربية ، لذلك حـرم هؤلاء من القيام بأي نشاط كل ذلك لم يكن خافيا على الامير عبد القادر يضاف اليه النـزاع المتفاقم بين سلطته في المغرب وسلطـة السلطـان نفسه ، مما دفعه اخيرا لتسليم نفسه الى « لامورسيير » في شهر كانون الاول من عام ١٨٤٧

بقيت ذكرى هذه الاحداث الدامية ماثلة في اذهان العسكريين الفرنسيين، يرافقها حذر دائم من السكان العرب وقناعة بأن القوة وحدها تستطيع كبـح جماحهم . اعلن « لامورسيير » في تشرين الاول عام ١٨٤٥ ما يلي : « مهما كانت الاحداث التي جرت مؤخرا مدعاة للاسف ، فانها قد القت ضوءا ساطعا على المستقبل . فقد قدمت البرهان على انه علينا عدم الركون للسكان المسلمين نظرا لتعصبهم الديني وتمسكهم بتقاليدهم التي تدفعهم لكراهيتنا والنفور من وجودنا » . كذلك كتب النقيب « لاباسيه » ، احد المسؤولين عن المكاتـب العربية ، يقول : « كان الاتراك يقولون دائما ان بن آوى والعربي متمردان لا يمكن تدجينهما ابدا » . هذا القول ، الصادر عن المستعمرين القدامى ، يجب ان يوجهنا في السلوك الواجب اتباعه تجاه هذا العرق الذي يمكن ارهابه ولكن لا يمكن كسب ولائه » .

ان الاستعمار الاستيطاني وحده هو القادر على اخضاع الجزائريين على المدى الطويل ، لذلك يتابع « لاباسيه » قائلا : « يجب ان تظل سياسة القمع والشدة مستمرة حتى يأتي اليوم الذي تتواجد فيه كتل جماهيرية مستعمرة

ومنظمة ، تبسط شبكة تأثيرها ونفوذها على البلاد وتمتص المعارضة » . في الحقيقية ، كان ضعف الاستيطان آنذاك يحجب عن « لاباسيه » وزملائه عدم الانسجام القائم بين النظام العسكري كما كانوا يتصورونه وتطور المستعمرة . فالتطور المطلوب تحت حماية الجيش وبمساعدته ، كان يتطلب مناخا من الليبرالية يتناقض تماما مع التمسك بوصاية الجنرالات على الجزائر . وقد كان « بوجو » ، من خلال حدسه الشخصي ، من اوائل الذين عبروا عن هذه الحقيقة .

كان مغزى الثورة خطيرا بالنسبة الشعب الجزائري : فزوال الامير عبد القادر قد جرد من عامله الوحيد الملموس للوحدة السياسية حول هدف مشترك . لذلك ستقتصر المقاومة من الآن فصاعدا على هبات عفوية متكررة ، ولكن ضمن اطار محدود وتحت ظروف محلية بحتة . وهكذا سجل هذا الضعف ، ليس في ارادة الكفاح بل في وسائله ، بداية عهد جديد ، كما اصبح بامكان الدولة الفرنسية ان تكرس كافة جهودها لتأمين الاشراف السياسي على المجتمع الجزائري كمقدمة للسيطرة والتملك الاقتصادي . في اطار هذه المهمة ، اصبح جيش افريقيا مدعو للقيام بدور اداري على حساب مهماته العسكرية البحتة . وهاهي الاهمية المعطاة للمكاتب العربية ترمز بوضوح الى هذا التحول في الاتجاه .

بقلم : جاك فريمو

ملحــق رقــم (١)

(خسائر رتل « رينو » من ٧ آذار حتى ٢٠ نيسان ١٨٤٦)

	قطعـــات			خيـــول			بغـــال		
	التعداد في ٧/٣/٤٦	الخسائر	الباقي في ١٧/٤	التعداد في ٧/٣/٤٦	الخسائر	الباقي في ١٧/٤	التعداد في ٧/٣/٤٦	الخسائر	الباقي في ١٧/٤
ـ الهندسـة	٢٠	—	٢٠						
ـ الفوج السادس الخفيف	٧٢٤	٢٩٦	٤٢٨	٨	—	٨	١٧	٢	١٥
ـ = ٣٢	٣١٦	٣١٦	—	٣	٣	—	٦	٦	—
ـ = ٥٦	٥٥١	٣٠٢	٢٤٩	٣	—	٣	١٢	١	٢
ـ المدفعيـة	٥٠	٢٩	٢١	٥	٢	٣	٤٤	٦	٣٨
ـ النقـل	١٠٨	٤٠	٦٨	١٣	٨	٥	١١٧	٥٣	٦٤
ـ سيارات صحيه	٩	—	٩						
ـ عمال اداريون	٧	٢	٥						
ـ فوج القناصة الرابع (الافريقـي)	٦١	١٥	٤٦	٦٥	٤٨	١٧			
ـ فوج القناصة الثاني (الفرنسـي)	٦٤	٥٧	٧	٦٤	٥٧	٧			
ـ فوج الفرسان الثاني	٧٧	١٢	٦٥	٧٧	٤١	٣٦			
المجمـوع :	١٩٩٧	١٠٦٩	٩٢٨	٢٣٨	١٥٩	٧٩	١٩٦	٦٧	١١١

جيش الجزائـر والمغـرب

ديناميكيــة الغــزو

(نهاية القرن التاسع عشر ـ مطلع القرن العشرين)

في سنوات ١٩٠٠ ، استمر الهجوم الفرنسي بنشاط خاص في افريقيـا الشمالية : فقد دخلت المسألة المراكشية في مرحلة حادة ، حيث تمتزج المشاريع السياسية والمالية والاقتصادية وتختلط الرهانات العسكرية والدبلوماسية .

كانت جهود القوى العظمى تنصب اساسا على المناطق الساحلية المفتوحة منذ زمن طويل امام التجارة والمكائد الاجنبية . وقد كتب الكثير عن مظاهـر ووتيرات هذه المجابهات والمنافسات الدولية مع التركيز على آليات هذا التوغل من جهة الغرب . الا انه لا بد من التذكير بأنه جرت في خلفية ذلك المشروع الضخم سلسلة اخرى من المبادهات التي تصدت لمراكش من جهة الشـرق (اي من الجزائر) . اذا كان الضغط « الجزائري » لم يقدم التأثير الحاسم ، فانه كان مع ذلك قويا ، كما عبر عن جهود كثيرة متكاملة او متنافسة ولا شك في ان للجيش هنا دورا جديدا يلعبه .

ولكن لا بد اولا من تحديد هذا الدور : فوظائف جيش افريقيا قد تجاوزت كثيرا مجرد الاختصاصات والمسؤوليات العسكرية البحتة . منذ اكثر مـن نصف قرن ، والجيش يعلم وينفذ ويقرر :

آ ـ فهو يعلم لانه شكل في الاصل نقطة تجميع مميزة للدراسات الجغرافيـة والاجتماعية او العرقية المخصصة للمغرب ، الا ان هذه الدراسات ظلت تحمل بصمة المراقب الاوروبي .

ب ـ كذلك كان الجيش ينفذ في الاعمال القتالية او الادارية المختلفة .

جـ ـ كان الجيش اخيرا يقرر : لانه استطاع ، عن طريق المكاتب العربية وعمليات القمع وعن طريق تواجده في مختلف مستويات الادارة والحاكمية العامة للجزائر ، بفرض وجهات نظرة في مجالات الاقتصاد والسياسة المحلية الا ان العسكريين اخذوا يفقدون مراكزهم بعد الثورة الجزائرية سنة ١٨٧١ ، ثم ما لبثوا ان خسروا منصب الحاكم العام عندما الحقت الجزائر بالتراب الفرنسي اعتبارا من عام ١٨٨١ ، كما بدأت مناطق المستوطنين تتسع على حساب المجتمع الاسلامي . كذلك بدات مقاومة القبائل تضعف تدريجيا بفعل العديد من الظروف . في عام ١٨٨١ ، وهو العام الذي جرت فيه مذبحة بعثة « فلاتر » والتدخل الفرنسي في تونس وتمرد « بوأمامة » على التخوم الجزائرية ـ المراكشية ، اعتقد البعض بوجود تنظيم اسلامي هائل سيهز المغرب العربي كله . الا ان الاحداث اثبتت وهم هؤلاء لان بؤر التمرد بقيت منعزلة ، ثم ما لبث الجنوب الوهراني وباقي المناطق الجزائرية ان فقدت كل قدرة على المقاومة بعد هزيمة « بوأمامة » واتباعه . وهكذا يمكن القول بأن عهد الحركات الكبرى قد ولى في هذا الجزء من الارض الافريقية ، مما ادى الى تقلص دور الجيش بسبب زوال حجته الاولى وهي « المحافظة على الامن » وضروراته لذلك كان من الطبيعي ان يجد الجيش في المسألة المراكشية فرصته المواتية لاستعادة المواقع التي خسرها .

١ ـ طرق التوغل والاختراق

حوالي عام ١٩٠٠ ، تم تحديد اهداف قريبة ، الا ان ديناميكية هـــذه الخيارات تظل اقدم من ذلك . وهكذا الامر بالنسبة لآليا تالعمل : فالتوغل الصحراوي بحد ذاته تأثيرات تدريبية . لذلك جرى التوسع الفرنسي نحو الصحراء وفق خرق مزدوج ، هاجري من جهة باتجاه الواحات ثم افريقيا السوداء ، وجانبي من جهة ثانية عبر الجنوب الوهراني الذي اصبح «مراكشيا» بالتدريج . وهاهي قضية الخط الحديدي الصحراوي تشهد على هذا الغموض والالتباس . فقد درس هذا المشروع دائما على صعيدين ، صعيد الاحـلام الكبار ومشاريع الامبراطورية ، وضعيد الانجازات الجزئيـة التـي تفترض محلولة مختلف المسائل الدقيقة والمحاور الصحيحة والمزايا والمساوىء التقنيـة والمجازفات السياسية والدبلوماسية . من جملة المخططات والرسوم المحتملة ، والتي تمر في الجنوب الوهراني ، الاغواط والفولية ، بيسكرة وورغلا ، او منذ « سيرت الصغيرة » عن طريق غاداميس ، كان من شأن الاول والاخـير اثارة الحساسيات لدى البلدان المجاورة والتعبير في الوقت نفسه عن التصميم على التفاوض او المجابهة وقد كان هناك من يرى في ذلك سياسة مصالحـة وتهدئة خواطر : اذ كان من المناسب غربا التوجه الى الحكومة الشريفية وفـق الاساليب الدبلوماسية المعتادة ، والمطالبة بموافقة السلطان وقبوله بالتوسط لدى القبائل التابعة لنفوذه . وهكذا ، بناءا على المساعي الفرنسية ، وجـه « المخزن » الى زعماء قبائل الحدود ، في عام ١٨٨٠ ، رسائل تطلب منهـم حسن استقبال المستكشفين المكلفين بدراسة مشروع الخط الحديدي وتسهيل مهمتهم . كذلك كان هناك من يرى في ذلك سياسة تحد واضحة : حيث صمم مشروع الخط الحديدي الصحراوي آنذاك كسلاح ، تدل رسومه ومخططاته على قيمته العسكرية الاكيدة ، خاصة وانه يمر في مناطق معروفة بثورتها الكامنة وعدم **ولائها** .

في عام ١٨٨١ ، وهو عام التمرد ومشروع الخط الحديدي في آن واحد ، صرح الحاكم العام « البير غريفي » بقوله : « يعتبر خط وهران ـ عين صلاح استراتيجيا بالدرجة الاولى ، فهو يبطل عمل آل قصور وكثيرين غيرهم من السكان البربر الشرسين بين « فيقيق » و « ايجلي » ، كما يسمح بوضع حد لاغارات « اولاد سيدي شيخ » وتقليص نفوذهم في منطقتي « غورارة » و « توات » . في عام ١٨٨٢ ، توجه « اورديغا » (الذي عين وزيرا مطلق الصلاحية لفرنسا في طنجة) الى بلاط سلطان مراكش ، ومارس خلال مهمته سياسة عدوانية تهدف الى تسوية الخلافات التي جاء مشروع الخط الحديدي الصحراوي ليزيد من حدتها . لم تلاق سياسة الوزير الفرنسي موافقة كافة معاونيه ، الا انه كان هناك شبه اجماع على ان الخط الحديدي يجب ان يمر في الارض المراكشية عند الحاجة .

بعد ذلك ببضع سنوات ، جاءت قضية « توات » . كانت الظروف مواتية: فها هي فرنسا ، التي اوقف تقدمها باتجاه النيل الاعلى بعد واقعة « فاشودا »، تنقل جهودها نحو الغرب ، كما جاءت حرب « البوير » لتشكل تغطية ومشاغلة مفيدة . لم يكن ينقص آنذاك سوى توفر الفرصة المناسبة ، وفي نهاية شهر كانون الاول من عام ١٨٩٩ ، تعرضت البعثة العلمية للباحث الجيولوجي « فلامان » للهجوم من قبل رجال من « عين صلاح » والقرى المجاورة . هنا جرى اشتباك مع القوة المرافقة للبعثة ، وفي اليوم التالي تم احتلال عين صلاح. لم يمض على ذلك سوى اشهر قليلة حتى سقطت مجموعة الواحات في ايدي الارتال الفرنسية . ولا شك هنا في ان العلاقة واضحة بين المشروع والحجة . ويكفي ان نذكر ما اعلنه وزير الخارجية الفرنسية في هذا الصدد حيث قال : « وصلتنا برقيتان من الحاكم العام للجزائر ، بتاريخ السادس من هذا الشهر ، يعلمنا فيها انه تم احتلال « عين صلاح » من قبل بعثة جيولوجية نجهل حتى وجودها » . ولكن الوزارة لم تجد اية صعوبة في الاعتراف بالامر الواقع المنسجم تماما مع سياستها الخاصة .

من المهم هنا ان نشير الى المغزى « الجغرافي » لخطط الاحتلال هذه ، فمسألة الخط الحديدي الصحراوي مرتبطة الى حد كبير مع مسألة « توات »،

والخط الحديدي قد وصل الى « عين صفرا » سنة ١٨٨٧ ، والى جنايـن بورزق « سنة ١٩٠٠ » . لقد كانت واحات « توات » تبدو سابقا كهدف بعيد المدى ، ولكنها اصبحت الآن تفرض نفسها كهدف مباشر . فالاتجاه الهاجري للتوغل الصحراوي يقود بشكل طبيعي نحو هذه الواحات عن طريـق وادي « الثورة » . الا ان المسافات قد قصرت فجأة ، كما ازدادت ضرورة اتخـاذ القرار العاجل . تضاف الى ذلك صورة « توات » ، هذه الغابة الهائلة مـن اشجار النخيل التي تقدر بعدة ملايين ادركت الحكومة المراكشية خطـورة الوضع ، فبدأت ، منذ عام ١٨٨٨ ، ترسل الوفود المتتالية الى « توات » وتعين مختلف القادة في الواحات المختلفة .

وفي عام ١٨٩٤ ، اثناء الاستيلاء على « تومبوكتو » من قبل الفرنسيين ، توجه مندوبون عن المدنية الى « مولاي حسن » ليطالبوه بالمساعدة والدعم . وهكذا لم يؤد الهروب نحو الجنوب الى تأجيل الصـراع بـل الى اثارتـه والتعجيل بـه .

يمكن القول اذن ان امتداد الخط الحديدي الصحراوي واحتلال «توات» هما مسألة سياسة عامة . الا انه ، في هذا البرنامج المدروس للتوغل نحـو « الجنوب » ، لم يعد من الممكن تجاهل اخطار المجابهة العسكرية في « الغرب » . وهكذا نجد ان فرنسا في الجزائر والامبراطورية المغربية قد وجدتا ، بعد نصف قرن من السلام الرسمي ، ارضا جديدة للمجابهة والنزاع على تخوم الصحراء ثم في قلبهـا .

من الجانب الجزائري ، لعب الجيش دور المنفذ ، ولكن مصلحته كانت تدفعه للميل نحو التعجيل في ديناميكية الغزو . ففي ١٨٩١ ــ ١٨٩٢ مثلا ، نجد الضباط التابعين لادارة المساحة العسكرية ميالين نحو الحل الحذر : اي ضرورة مرور الخط الحديدي بجوار « فيقيق » . ولكن القيادة ، وخاصـة الجنرال « دي بسول » (قائد الفيلق التاسع عشر) ، تصر على ضرورة تطبيق المخطط الاكثر عدوانية وتهديدا للواحة المراكشية . اخيرا ، وجد الحل الشديد آذانا صاغية لدى المسؤولين الباريسيين المترددين من امثال « فريسينيه »

فزال كل غموض حول الخط الحديدي الصحراوي الذي اصبح سلاحا أكثر منه وسيلة سلمية .

اعتبارا من عام ١٩٠٠ على وجه التحديد ، اصبح باستطاعة الجيش من جديد ، وفي ظروف سياسية عسكرية مواتية ، ان يفرض وجهت نظرة الخاصة بالغزو الذي كان يرهبه السياسيون والدبلوماسيون . وفي عشية احتلال الواحات الصحراوية ، بدأ الخلاف يظهر والشقة تتسع بين مفهومين للسياسة الفرنسية في مراكش : ففي صيف عام ١٩٠٠ ، اعلن الجنرال « غريزو » قائد الفيلق التاسع عشر ، عن استعداده لتوجيه ضربة حاسمة ، لذلك كتب الى وزير الحربية يقول : « ارجوكم بكل الحاح ان تحصلوا من الحكومة على قبولها بأن يفسح العمل السياسي المجال مؤقتا امام العمل العسكري البحت » . اما الهدف فمزدوج : في الصحراء ، منطقة « تـوات » ، وفي الجنوب الغربي ، بين وادي « زوسفانا » والطفيلة ، اراضي « دوي مينيه ». وليس هناك من يجهل ان الطفيلة هي مهد الاسرة الشريفية العلوية والاسرة الحاكمة المراكشية . وفي الرسالة التي وجهها الجنرال « اندريه » ، وزير الحربية ، الى « ديكلاسيه » ، ذكر فيها بوضوح ان على القوات الفرنسية ان تدخل قلب البلاد المراكشية ، في ذلك المثلث المشكل من وادي غوير زوسفانا الا ان هذا التدخل لا يمكن اعتباره تهديدا للطفيلة التي تبعد حوالي مئتي كيلو متر عن « غوير » اما التبرير الذي قدم لذلك فهو ان هذه المناطق لا تشكل اية نقطة مشتركة ، سواء من حيث العرق او اللغة او العادات ، بين « دوي مينيه » و « البربر » المراكشيين .

وقد كان شارل جونار ، الذي عين حاكما عاما اعتبارا من تشرين الاول ١٩٠٠ حتى حزيران ١٩٠١ يؤيد هذه السياسة العسكرية والجزائرية ، ويرى انه لا بد من عقاب القبائل المعادية . الا ان هذه الجبهة المشتركة كانت تجد معارضة سافرة من قبل وزارة الخارجية ومشاريعها ، والتي ترى انه يجب ـ تجنب اي نزاع او اشتباك مع سكان الجنوب ـ الشرقي المراكشي مثل (فيقيق) وان العقوبات يجب ان تقتصر على العناصر المشاغبة وفي الحدود الدنيا التي لا بد منها .

في مطلع شهر كانون الاول من عام ١٩٠٠ ، ايد مجلس الوزراء سياسة وزارة الخارجية .

وهكذا سنجد من الآن فصاعدا سياستين مختلفتين : فسياسة طنجة ووزارة الخارجية تحرص على عدم اثارة قلق السلطات المغربية . فبعد حادثة (توات) قامت الحكومة المراكشية بارسال بعثتين الى اوروبا . وفي حزيران من عام ١٩٠١ ، سافر وزير الحربية الى لندن ، كما قام بزيارة برلين في شهر تموز ، بينما توجه وزير الخارجية الى باريس ثم الى (سان بيتر سبورغ) . وبمناسبة هذه الرحلة الثانية ، وقع في باريس البروتوكول الفرنسي ـ المراكشي في ٢٠ تموز ١٩٠١ ، والذي خصص لتسوية مسائل الحدود . الا ان الاتفاق لم يأت بوضوح على مسألة هامة وهي مسألة الخط الحديدي . ففي اليوم الذي وقع فيه الاتفاق نفسه كتب الوزير (ديلكاسية) الى الوزير المراكشي قائلا : (في نفس اطار الصداقة الذي املي البروتوكول الذي تم توقيعه هذا اليوم ، اعلم سيادتكم بأن حكومة الجمهورية الفرنسية قد قررت وستعمل تدريجيا على اقامة خط حديدي بين الجزائر والسينغال عبر وادي (زوسفانا) ووادي (ثورة) ، مارا بالنقاط التالية : اغلي ، بني عباس ، توات ، تومبوكتو). صحيح ان الظاهر هنا يدل على مشروع سلمي ، ولكن الهدف الحقيقي يبقى هو وضع اليد على مراكش . في اطار هذا المنظور ، من المستبعد ان يجري مبكرا فتح الاضبارة المراكشية ، وخاصة عن طريق المغرب الجزائري ، لان التقدم الاستراتيجي نحو مراكش الشرقية قد يشكل عائقا امام حل شامل على صعيد مراكش بكاملها . في عام ١٩٠٠ ، فهمت بريطانيا العظمى ذلك جيدا ، حيث صرح السيد (سالزبوري) للسفير الفرنسي في لندن قائلا : (ان مسألة « توات » هذه لا تهمنا بأي شكل من الاشكال وليست لدينا اية رغبة في التدخل بها) . فالدول العظمى تهتم اساسا بالمرافيء ، ولا بد لاي حل مستقبلي للمسألة المراكشية من ان يحظى بموافقة الدول الكبرى .

لذلك يمكن ان نفهم بصورة افضل لماذا تعتبر وزارة الخارجية الفرنسية مسألة مراكش قضية سياسية خارجية اكثر منها قضية استعمارية بحتة .

أزاء هذه السياسة ، نجد سياسة أخرى تتبلور بصورة مستمرة : أنها سياسة عدوانية تعتمد على الحملات العسكرية وممارسة حق التتبع . وهذه هي سياسة الاوساط الفرنسية في الجزائر ، من العسكريين والمدنيين حتى الحاكم العام . لذلك كانت السلطات تتحين الفرص للتدخل متزرعة بشتى الحجج .

في مطلع القرن العشرين ، استؤنفت اعمال الشغب والتمرد في الجنوب الوهراني وهي في الحقيقة لم تتوقف كليا في أي وقت من الاوقات ، لذلك كانت مناسبات التدخل الفرنسي كثيرة وتدل التقارير على ان السكان الجزائريين كانوا يتحملون بشكل غير مباشر تبعات المنافسات الداخلية في مراكش . ففي عام ١٨٩٧ مثلا ، اراد حاكم (اوجده) تحصيل التعويضات المفروضة على قبائله من قبل الحكومة الفرنسية لصالح القبائل الوهرانية ، فوجد امامه معارضة قوية قوامها ٣٠٠٠ رجل على الاقل ، تابعين لقبائل بني سسن ومهايا وانقاض ، اعلنوا العصيان المسلح . وهكذا بدأت العصابات المسلحة تجتاز الحدود جيئة وذهابا . وفي (للامغنيه) ، انتشر الرعب واضطرت عائلات اوروبية للنزوح طلبا للملجأ والمأمن ، مما اضطر القيادة لارسال تعزيزات على عجل . وخلاصة القول ان بوادر كثيرة كانت تدل على ان الفوضى المزمنة في المغرب الاقصى تهدد الامن الذي استتب اخيرا في الجزائر ، وان القضاء على هذه الفوضى لا يمكن ان يتم الا عن طريق التدخل من الجزائر .

٢ ـ الهجـــــوم

آ ـ المراحل والجبهات :

اعتبارا من شهر تشرين الاول لعام ١٩٠٢ تعقد الموقف من جراء حركـة عصيان واسعة النطاق قادها (بوحماره) ، المعروف تحت اسم (روغـي) يسانده تحالف (غياتا) . كان (بوحماره) يقيم في (تازا) حيث اعترف بـه كسلطان وحيث بدأ يدعو للثورة على السلطان الشرعي ومستشاريه المسيحيين (الانكليز) ، محاولا : اثارة مراكش الشرقية كلها ، وقد نجح في صد الجيوش الشريفية كما احتل (اوجده) في عام ١٩٠٣ . عندئذ اضطرت السلطات في هذه المدينة للجوء الى (للامغنيه) ودخلت بعض القبائل المراكشيـة الاراضـي الجزائرية . وقد زاد الامر خطورة انضمام قوات (بوعمامة) ، العدو القديم لفرنسا ، و (بوحماره) اخيرا ، اضطر (بوحماره) لمغادرة التخوم والتوجـه الى (سلوان) جنوب (ميليلا) . مهما كان الدور الحقيقي ، الرسمي أو شبه الرسمي ، الذي لعبته الاوساط الفرنسية المقيمة في الجزائر في هذه القضية ، فهناك امر مؤكد : وهو ان العصيان المسلح قد ساهم في التأكيد على ضرورة تقسيم الامبراطورية الشريفية ، بما في ذلك المنطقة الشمالية ـ الشرقية المجاورة للاهداف الجزائرية بطبيعة الحال .

وهكذا اصبحت المبادرة الجزائرية مبررة من الان فصاعدا اكثر من اي وقت مضى . صحيح ان تمرد (بوحماره) قد ادى ، على الصعيد الدبلوماسي، الى الحد من النفوذ البريطاني لصالح التوغل السلمي الذي يناي به (ديلكاسيه)، ولكن العسكريين في منطقة وهران خاصة وفرنسيي الجزائر عامة لم يتوقفوا عن توجيه الانتقادات الى تلك السياسة الوجلة . فالاغلبية من هؤلاء ترى من الضروري العمل بسرعة ، لذلك التف الكثيرون حول سياسة القبائل ، التي

تعتمد على هجوم مباشر وعام عن طريق التخوم . وقد دافع عن هذه السياسة رجال معروفون من امثال (اوجين ايتيان) ، نائب وهران ، الذي قام في باريس بحملة نشطة جدا ، فترأس لجنة مركش التي اسست سنة ١٩٠٤ كما دخل الحكومة سنة ١٩٠٥ كوزير للداخلية ثم كوزير للحربية كذلك دافع عن هذه السياسة كل من (جونار) ، الحاكم العام للجزائر ، و (ليوتيه) قائد منطقة (عين صفراء) . وحتى في طنجة نفسها ، لقيت هذه الدعاية اصداءا واسعة. وهكذا يمكن القول ان هذا البرنامج الهجومي ليس من وحي عسكري بحت : فالجيش اداة لتنفيذ السياسة ، ولكنه كان الاداة الوحيدة آنذاك .

ظلت الحوادث تترى على الحدود حتى لفتت الانظار نحو التخوم . وفي ٣١ ايار سنة ١٩٠٣ ، هوجم الحاكم العام (جونار) عند مضيق (زناقة) من قبل بعض اهالي (فيقيق) . عندئذ ، جاء الرد الانتقامي بقصف قصور الواحة ، كما ارسل رتل خاص الى اراضي (بني قيل) ، وآخر الى (بشار) وقنادسه . بعد ذلك بفترة قصيرة جرى اشتباك كان على (وادي زوسفانا) ، من ١٧ ــ ٢٠ اب سنة ١٩٠٣ في (تاغيت) حيث تحشد اربعة الاف مراكشي قادمين من طفيلة ، ثم في ٢ ايلول عند (المنقار) .

في خريف عام ١٩٠٣ بالذات ، وضع (ليوتيه) ، بناء على طلب جونار ، على رأس موقع (عين صفراء) . وفي نهاية عام ١٩٠٦ ، استلم قيادة منطقة وهران . كانت الحدود الذي كلف بمراقبتها غير آمنة باستمرار ، تجوبها العصابات المسلحة المتنقلة التي لا بد من ملاحقتها . لذلك وضعت تحت تصرف هذا القائد امكانيات ووسائط عمل هائلة .

حصل (ليتوتيه) على استقلالية شبه تامة في العمل : فعندما كان قائدا مسؤولا في (عين صفراء) ، كان يتصل مباشرة مع الحاكم العام ووزير الحربية دون ان يتقيد بالتسلسل العسكري لفرقة وهران او للفليق التاسع عشر . كذلك كانت تحت تصرفه طاقة عسكرية اضافية هي : السرايا الصحراوية الخفيفة التسليح والسريعة الحركة ، والتي كانت تراقب مساحات صحراوية واسعة ، تساندها في الخلف قوات الرماة والفرسان والفرقة الاجنبية . لم

يركز (ليوتيه) في كتاباته على هذا التفوق الساحق في الوسائط العسكرية الا انه كان حقيقة واقعة لا جدال فيها . وخاصة في البنادق والرشاشات والمدافع . يضاف الى ذلك التكتيك الفعال والناجع ، الذي طبقه الجنرال ، مستخدما الارتال القوية والسريعة الحركة والمخافر العديدة التي كانت تعمل بمثابة قواعد انطلاق ونقاط تموين . لننتقل الآن الى المراحل الاساسية باختصار: في الصحراء او البادية ، بدأ التقدم باحتلال (بشار) في شهر تشرين الاول من عام١٩٠٣ ، و (فورتسا الغربية) في اذار من عام ١٩٠٤ ، كما احدث مخفر قرب (رأس العين) في حزيران من عام ١٩٠٤ ، ثم مخفر آخر في (تل زازا) سنة ١٩٠٥ .

جاء اغتيال الدكتور (موشان) في مراكش خلال شهر اذار من عام ١٩٠٧ ليقدم الحجة المبتغاة ، فدخلت القوات الفرنسية الى (اجده) . الا انه كان لا بد من اخضاع (بني سناسن) الذين كانوا يعبرون وادي كيس بصورة منتظمة ليغيروا على القبائل الجزائرية . لذلك نظم (ليوتيه) حملة فعالة قوامها رتلان قويان يتألفان من (٢٥٠٠) رجل ، التقيا في ٢٥ كانون الاول من عام ١٩٠٧ عند مضيق (طافورالت) . وفي عام ١٩٠٨ بدأت المطاردات العنيدة والاشتباكات الدموية مع المتطوعين المراكشيين . كانت حصيلة ذلك الاستيلاء على (كساربو دنيب) على ال (غير الاعلى) ، حيث تمركز حوالي ١٥٠٠ رجل اخذوا يقيمون الحصون والمنشآت الدفاعية . حاولت قوة مراكشية ، مؤلفة من (٢٠,٠٠٠) رجل ، ان تستعيد الموقع ولكنها فشلت . وهكذا ، باحتلال (بودنيب) و (بوعنان) و (كسار عين شعير) ، اصبحت البلاد ممسوكة جيدا حتى (غير) . بعد احداث عام ١٩٠٨ ، بدأت مقاومة المراكشيين تضعف لتحل الاغارات البسيطة محل الهجمات الشرسة .

اما المراحل التالية والاخيرة فهي (الملوية) وخواصها : فقد عمد (ليوتيه) لحماية النشاطات التجارية المنصوص عليها في اتفاقية ٢٠ نيسان ١٩٠٢ في منطقة (عيون سيدي ملوك) و (دبدو) ، اقام (ليوتيه) مخفرا في (توريرت) في حزيران من عام ١٩١٠ . من هذا الموقع ،اصبح من الممكن مراقبة طرق (دبدو) (ومليلا) و (تازة) . كذلك اصبح بالامكان ، انطلاقا من هذه النقطة ، القيام

باستطلاعات مختلفة واسعة حتى مخاضات (الملوية) . في شهر تموز من عام ١٩١٠ ، اقام (ليوتيه) نفسه معسكره على ضفاف النهر ، كما امر باقامة مخفر مؤقت في (مول الباشا) ، ومنعت الضفة اليمنى للنهر على القبائل الموجودة على الضفة اليسرى ، فاعتبر هذا النهر هو الحد الاقصى للتقدم العسكري آنذاك .

تم التقدم بصورته النهائية على ثلاث جبهات : جبهة صحراوية عن طريق الجنوب ـ الشرقي المراكشي ، وجبهة شمالية عن طريق (اجده) و (بني سناسن) ثم جبهة وسطى باتجاه (المولويه) .

ب ـ الجيش والدبلوماسية :

كان (ليوتيه) يرفض تشجيع (بني غيل) المراكشيين المستعدين للخضوع للسلطات الفرنسية واعتبار انفسهم من الرعايا الجزائريين ، كما كان يقبل احيانا بمبدأ (وحدة الارض المراكشية) وسلامتها . وهكذا بقيت المنطقة داخل الامبراطورية الشريفية . ولكن ، في الوقت نفسه ، تمركزت قوات (ليوتيه) في (راس العين) ، مما سيفسح المجال امام معارضة الحكومة واصرار الجنرال .

فالمثال اللاسيكي للهجوم العسكري هو مثال واضح لاحتلال نقطة المياه هذه ، التي تتمتع بميزتين : **استراتيجية** ، لانها تسمح بالحد من توغل (بني‌غيل) في الارض الجزائرية ومراقبة (بوامامه) الذي توجه شمالا في ربيع عام ١٩٠٤ للقاء (بوحماره) ، **واقتصادية** ، لان اتفاقية ٢٠ نيسان لعام ١٩٠٢ قد نصت على اقامة سوق مختلطة . ولا شك في ان المظهرين مرتبطان بشكل وثيق في نظر (ليوتيه) ، الذي كان يرى ان التقدم باتجاه مراكش امر محتم لا مفر منه : اذ لا توجد اية نقطة مياه وسيطة اخرى بين (العريشة) او (عين خليل) من جهة و (راس العين) من جهة اخرى . كذلك لم تكن هناك حدود واضحة : الامر الذي كان يتطلب وضع اوتاد متفرقة ، وهذا ما لم توافق عليه الدبلوماسية ولا الحكومة ، فقد خشي وزير الخارجية ان تستغل المانيا الوضع وتستنكر العملية كلها . في ٢٨ تموز ، قرر مجلس الوزراء اخلاء (راس العين) ، ولكن

(ليوتيه) ظل صامدا ، يدعمه (جونار) ، مما اضطر الحكومة للرضوخ اخيرا مع المحافظة على مبدأ الاخلاء ، تاركا (جونار) اختيار اللحظة المناسبة للتنفيذ دون المس بالمصالح الجزائرية . اطلق على المخفر الفرنسي ، الذي اقيم آنذاك اسم (بيرغون) . وهكذا تمكن (ليوتيه) من تذليل كافة العقبات بأعجوبة ، وخاصة تلك التي وضعها في طريقه المسؤولون السياسيون المهتمون بالعواقب الدولية . بعد ذلك بفترة معينة اضطرت الحكومة الفرنسية ، مقتنعة او مرغمة، للاعتراف باحتلال (بودنيب) : فقد كان (ليوتيه) يطالب بتوجيه حملة منذ عام ١٩٠٦ ، وفي عام ١٩٠٨ ، فرض ذلك كأمر واقع .

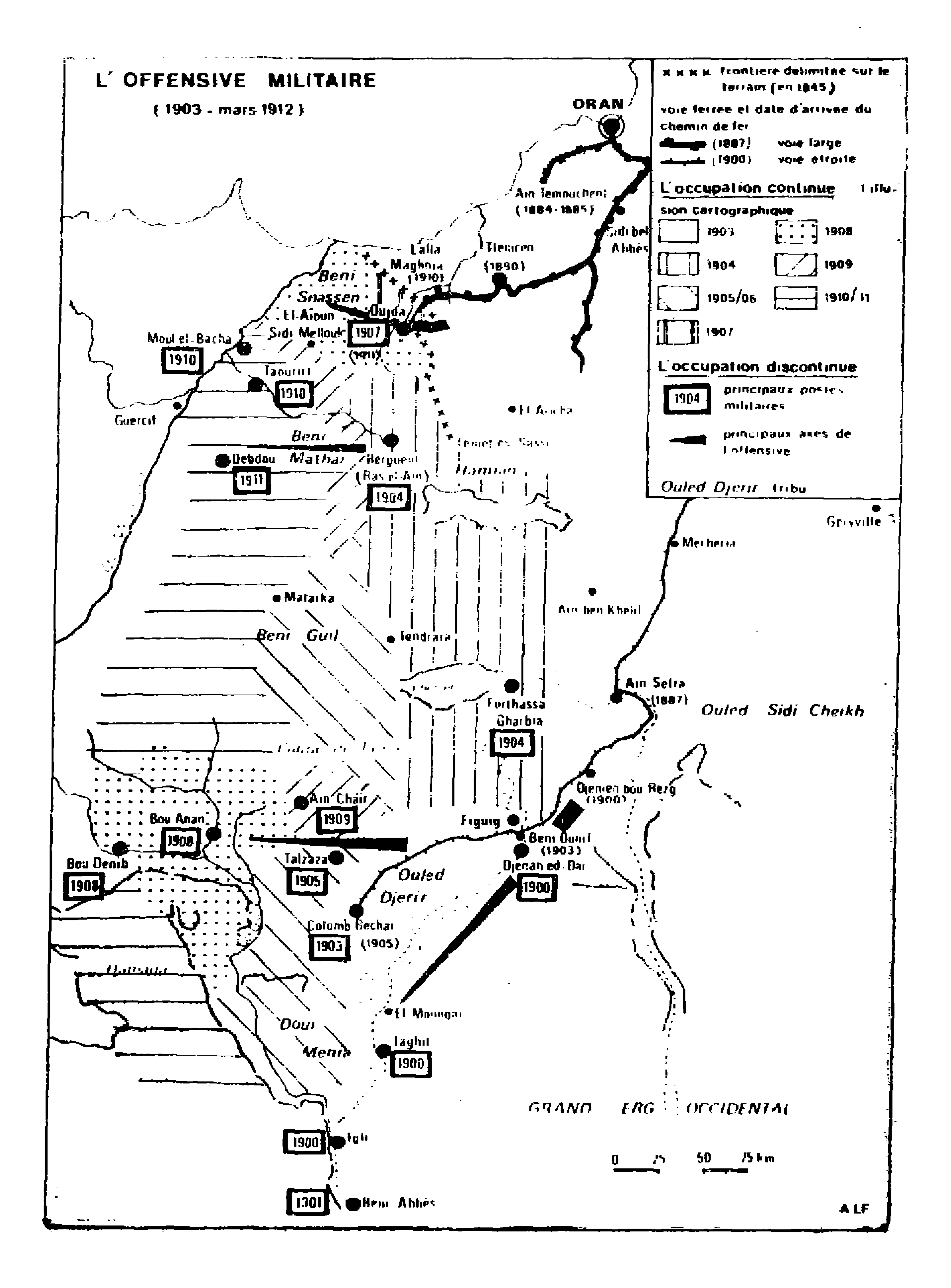
في نهاية عام ١٩٠٨ ، قام (ليوتيه) ، الذي عين مفوضا اعلى في منطقة الحدود خلال شهر ايار ، بكتابة تقرير ضخم حول تنظيم المنطقة المحتلة . لقد درس مطولا مختلف وجوه هذه المسألة ، من سياسية وعسكرية وادارية وتجارية وجمركية . كذلك عين حدودا لمنطقة التخوم : الملوية حتى قصبة المخزن والتخوم الشرقية للطفيلة . وهكذا فتحت ثغرة هائلة في البناء المراكشي: حيث جرى تحميل النهر بكامله على الخرائط . جاءت الاعتراضات مرة اخرى من وزارة الخارجية ، والمذكرة التالية تبين أهم المآخذ : (نحن لم نعتبر من الضروري البحث عن حدود لهذه المنطقة ، خاصة واننا اعلنا في مناسبات عديدة عن عدم رغبتنا في ممارسة اية سلطة مباشرة دائمة هناك ، بل سنترك موضوع الامن فيها للشرطة المغربية مستقبلا وليس للقوات الفرنسية . من المعروف ان الحدود هي خط فاصل بين سيادتين او سلطتين مستقلتين ، لذلك فهي ليست ضرورية ولا مفيدة في تلك المنطقة) . فقد جاء الاحتلال العسكري نتيجة حدث استثنائي ، وهو اغتيال الدكتور (موشان) وغارات بني سناسن ، لذلك فهو في الاصل ذو طابع مؤقت . ولم تكن هناك نية لبسط السيادة على عين شعير او على (غير الاعلى) . واغلب الظن ان تمرد بني سناسن قد جاء مفتعلا نتيجة تدخل مصلحة الاستخبارات لرتل (اوجده) في المسائل الداخلية لهذه القبائل . اما الاستطلاعات ، التي قام بها قائد مخفر (بيرغون) في (ديبدو) (انوال) ثم قائد (بودنيب) حتى منابع (غير) ، فتعتبر مخالفة لتعليمات الحكومة . الا ان السلطات الحاكمة في الجزائر كانت تؤيد هذه الاعمال:

فهاهو (جونار) يؤكد ان مقترحات (ليوتيه) تعكس المبادىء التـي اعلنت عنها الحكومة ، وان الحدود المقترحة من قبل المفوض الاعلى تنسجم مع الضرورات الجغرافية والاستراتيجية ، مما يجعل من المناسب المحافظة عـلى احتلال (بودنيب) ، بل وتحديد الخط الحديدي حتى هذه النقطة . وهكذا يمكن القول ان الحاكم العام كان يدافع مع (ليوتيه) عن حق التدخل .

في عام ١٩٠٧ ، مع احتلال (اوجده) والانزال البحـري في الدار البيضاء، بـدأ الجيش يمسك الامبراطورية المغربية بفكي كماشة . من الناحية العسكرية بدأت مرحلة ثالثة حاسمة ، سيزداد الخرق خلالها ثم يتنوع وينتقل مـن الشرق الى الغرب .

خــــارطـة الهجـوم العســكري

(١٩٠٣ ـ آذار ١٩١٢)



٣ - (ليوتيه) الجزائري

بين١٩٠٤ - ١٩٠٥ من جهة ، و ١٩١٧ - ١٩١٨ من جهة ثانية ، كان سلوك (ليوتيه) ينم عن تفاوت كبير بين الاتباعية والابتكار المستند الى المرونة والواقعية . الا ان هناك مجالا واحدا لم تتغير فيه مفاهيم (ليوتيه) : وهو الدور والصلاحيات المعطاة للجيش . فقد كان يرى انه لا بد من اعطاء الجيش استقلاليته بشكل تصبح معه القيادة المحلية وحدها هي المسؤولة عن القرار والتنفيذ . استنادا الى وجهة النظر هذه تصبح الحرب الاستعمارية مسألة عسكرية ، كما يصبح المسؤول عسكريا وسياسيا في آن واحد .

ما كاد (ليوتيه) يصل الى عين صفراء حتى شرع في شرح استراتيجيته من جديد : (اعتقد ان جميع النتائج السياسية والاقتصادية ، المترتبة على احتلال بلد ما ، تنجم بالضرورة عن الاسلوب الذي تم بموجبه هذا الاحتلال، وذلك بالتوفيق الوثيق منذ البداية بين التحضير والعمل السياسيين والاحتلال العسكري ، دون ان يغيب عن البال مطلقا الهدف السياسي والاقتصادي للمستقبل . لذلك ادرك ليوتيه آنذاك التناقض الواضح بينه وبين فرقة وهران التي لا تفهم الهجوم العسكري الا ارتالا متحركة ونيرانا حامية .

وهكذا اصبح الجمع بين السياسة والعمل العسكري سلاحا ماضيا في يد (ليوتيه) سيكون اداته الناجعة للاحتلال وتذليل كافة العقبات : بدءا بالقبائل الثائرة وانتهاءا بمعارضة باريس والصحافة والبرلمان .

الا ان استراتيجية (ليوتيه) السياسية لم تكن لتقلل من دور العمل العسكري او تحط من اهميته : فمهمة الجيش يجب ان تظل هو الانتصار ولذلك كتب في تقريره بعد احدى العمليات العسكرية يقول : (مما لا شك فيه ان القوة هي الحجة الحاسمة مع السكان المحليين ، وان (الاحتلال

السلمي) يتحقق دائما لمن يظهر اكثر قوة واشد تصميما . وحتى اثناء تدشين سكة حديد (بني اونيف) في بيشار ، التي تعتبر عملا سياسيا وفق خطابات المسؤولين الرسميين ، نجد (ليوتيه) لا ينسى التنويه (بالسيف القاطع والبندقية الجيدة) .

في نظر (ليوتيه) اذن ، يرتدي الاحتلال والتقدم لباسا سياسيا ليصبح آلة حربية لا تقاوم ، لانها تختلف عن المناورات العسكرية البحتة التي اقتصرت عليها حتى ذلك الحين قطعات فرقة وهران . وهكذا كان يجمع بين نوعين من الهجوم لا ينفصلان هما : الملاحقة والاحتلال . فحق الملاحقة ، الذي اعترف به في معاهدة الحدود الفرنسية ـ المراكشية سنة ١٨٤٥ ، والذي كان يمارس باستمرار من قبل الارتال الفرنسية طوال نصف قرن ، يسمح بتنفيذ حملات تأديبية ذات مدى بعيد . واشهر مثال على ذلك هي العملية التي قام بها الجنرال (دي ويمبفن) عند نهاية الامبراطورية الثانية حتى (كسار عين شعير) المراكشية. الا ان تلك الارتال كانت تعود دائما الى نقطة انطلاقها بعد تنفيذ مهمة الملاحقة . لذلك لم تترك اثرا سوى مجرد كونها سابقة يمكن الاستناد اليها وتكرارها . اما الاحتلال ، فكانت له اهداف اكثر قربا : وهي زرع المستوطنات تدريجيا على غرار الخط الحديدي ، ولكن بصورة دائمة ونهائية . الا ان (ليوتيه) جمع بين هذين الاسلوبين بجرأة كبيرة : فهو يريد التوغل بعمق دون اي تراجع. وهكذا اتضحت معالم نموذج جديد للاحتلال التدريجي المنظم . ولكن مبدأ الملاحقة لم يستعبد ، وهاهي العمليتان الكبيرتان اللتان نفذتا سنة ١٩٠٦ لم تنتهيا بالاحتلال . لذلك كان الخيار مفتوحا على الارض امام الجيش : فاما الملاحقة البحتة او الملاحقة التي تنتهي بالاحتلال . في الحالة الاولى ، يمكن اختبار المقاومات التي تبديها الاوساط السياسية وجس نبضها ، اما في الثانية ، فالاقامة حتمية ومخططة . وهكذا كانت الخيارات تظل مفتوحة حتى آخر لحظة ، كما كانت هناك امكانية دائمة لتأويل النصوص : ففي نهاية عام ١٩٠٦ ، وردت برقية وزارية تقضي (بفرض عقاب تأديبي نموذجي على العصابات التي تقوم بالهجوم) ، وقد تم تفسير هذا النص كغيره من النصوص الغامضة لصالح تعميق الاعمال العسكرية الى اقصى حد ممكن ـ . ومن

المؤكد ان (ليوتيه) كان تواقا دائما لتحويل عمليات الملاحقة والتأديب الى احتلال دائم كلما سنحت الفرصة لذلك . على ضوء هذه الاستراتيجية ، كان التقدم الى الامام هو الهدف والشعار والوسيلة .

يمكن تحليل مفهوم الاحتلال وفق بعديه الاساسيين : المكان والزمان . فالصحراء ونقص المياه يفرضان المراحل . لذلك نجد ان المخافر ، التي قرر (ليوتيه) اقامتها تبعد الواحد عن الاخر مسافة ستين كيلو مترا بشكل تستطيع الاتصال فيما بينها خلال يوم واحد . كذلك يجب ان يكون الاحتلال دائما ، والصعوبة الكبرى تمكن في اقناع الحكومة بقبول الامر الواقع . في عام ١٩٠٧ ، قام (ليوتيه) مع (رينيو) ، وزير فرنسا المفوض في طنجة ، برحلة الى الرباط ، في البداية ، كان يخشى الا يجد في هذا الدبلوماسي الا خصما آخر ، ولكنه ما لبث ان لاحظ بسرور ان ممثل وزارة الخارجية يشاركه وجهة نظره فيما يتعلق بالسياسة المراكشية . لذلك كان من المطمئن ان يتفق الرجلان على (وضع مراكش في جيب فرنسا دون ضجة او عناء ، عن طريق التلاعب بالنصوص) .

الا ان اسلوب (ليوتيه) في الاحتلال كان يستلزم مفهوما خاصا للقبيلة المغربية وصورة لمراكش نفسها (تبرر) اعمال التوغل والملاحقة والاحتلال . لم يكن (ليوتيه) يرى في قبائل افريقيا الشمالية سوى مجموعات من المنشقين المتنقلين ، الذين يمارسون الاغارات والغزو ، الذين لا بد من ملاحقتهم دون هوادة . فهم يجمعون بين صفتي البداوة والمحاربين في آن واحد . لذلك نجد (ليوتيه) يذكر دائما بأن قبائل الحدود متداخلة فيما بينها من حيث المصالح والمراعي وقطاعات العمل ، ولكنه ركز على قبيلة (دوي منيه) ، التي وضعها في النسق الاول ، لانها تقع في الطرف الاقصى للتوسع الوهراني الجنوبي ، عند الملتقى المحتمل للبلدين . الا ان هذه القبيلة ، المقيمة بين الطفيلة ووادى زوسفانا ، والتي تعتبر بسبب موقعها الجغرافي هذا اكثر تعرضا من سواها لمنازعات السيادة ، تعتبر في الوقت نفسه من اكثر القبائل استقرارا في منطقة الحدود ، ليس لان افرادها دون سواهم شجاعة او استعدادا للقتال ، بل لانهم يعتبرون متوسطين في حياتهم بين البداوة والحضر . فهم شبه بدو يوزعون اوقاتهم حسب

فصول السنة بين استثمار النخيل (في الطفيلة وزوسفانا) ، زراعة الحبوب (في منطقة قوير) وحراسة المواشي (في منطقة حمادة) .

قرر (ليوتيه) ان يوكل للجيش مهمة تشجيع القبائل المناوئة على الاقامة والاستقرار ، واستدارجها بعيدا عن قواعدها العسكرية بتوفير اسباب العيش لها قرب المخافر بالاضافة الى المساعدات الطبية والمدارس .

في الحقيقة ، وعبر المجتمعات ، كان الصرح المراكشي كله مستهدفا . وقد تحدث المؤرخون كثيرا عن الدور الذي اراد (ليوتيه) ان يلعبه لدى السلطان، عن مفهوم حول المؤسسات ورغبته في المحافظة علـى التماسـك الجغـرافي والسياسي لمراكش . ففي ٢٩ شباط ١٩١٦ ، ادلى (ليوتيه) امام اعضاء غرفة التجارة لمدينة (ليون) بالبيان التالي : (في الوقت الذي وجدنا انفسنا في الجزائر امام جهاز منهار كان قائما على سلطة (الداي) التركي وحده ، وجدنا انفسنا في مراكش امام امبراطورية تاريخية مستقلة ، تتمرد على اي نوع من العبودية ، وبناء حكومي متماسك بتسلسله الهرمي الوظيفي وتمثيله الخارجي واجهزته الاجتماعية التي مازالت قائمة حتى الآن رغم الضعف الحديث للسلطة المركزية .

في الفترة الواقعة بين عامي ١٩١٧ ــ ١٩١٨ ، حدثت معركة عنيفة غير متوقعة بين السلطات الفرنسية في الجزائر ومراكش ، كانت الغاية منها التنازع على السيادة في منطقة القبائل الواقعة على التخوم بين البلدين ، وخاصـة حول قبيلة (دوي منيه) التي لم يكن مصيرها قد تقرر بعد . وهكذا نشـب خلاف حاد ، اشترك فيه (ليوتيه) والحاكم العام (لوتـو) . ثم تكـررت الحوادث والنزاعات بعد ذلك . لقد نص البروتوكول الفرنسي ــ المراكشي الموقع في ٢٠ تموز سنة ١٩٠١ على انه يحق لقبائل (دوي مينه) وحلفائهـا (أولاد جرير) ان تختار السلطة التي ترغب الخضوع لها الا ان هذا الموضوع بقي رهن المناقشات التي لا تنتهي رغم مرور خمسة عشر عاما عـلى هـذا التاريـخ .

في مطلع عام ١٩١٧ ، انتقلت مجموعة من (اولاد جرير) الى (بودنيب) ملتمسة الخضوع للسلطة المراكشية ، ولكنها سيقت تحت الحراسة ، بناء على طلب قائد مخفر (كولومب) الى هذا المخفر مرغمة ، حيث سجنت واجبرت على الخضوع للسلطات الجزائرية . بل بلغ الامر حدا اتهمت معه هذه الجماعة بالعصيان ، كما طلب احالتها امام مجلس حربي . لذلك كان من الطبيعي ان يثير هذا حنق (ليوتيه) واعتراض خايفة السلطان المراكشي في الطفيلة على المعاملة السيئة التي يلاقيها ابناء (دوي منيه) . الا ان السلطات الحاكمة في الجزائر قررت اخيرا ولاسباب اقتصادية اكثر منها اقليمية او سياسية ، اعتبار (دوي منيه) و (اولاد جرير) من الرعايا الجزائريين على المدى القصير لانهم كانوا يدفعون الضرائب عن الزراعة والمواشي للسلطات الجزائرية .

في الحقيقة ، كان اسلوب حياة القبائل في مناطق الحدود هو السبب الرئيسي في هذه الخلافات والنزاعات . في نهاية شهر كانون الاول من عام ١٩١٧ ، جرى حادث آخر على الحدود : فقد تحرك المقدم (دوري) ، قائد موقع (بودنيب) مع بعض قواته في جولة بوليسية حتى منطقة (قوير) ولكن هذا اثار سيلا من البرقيات الاحتجاجية ، كما عمد الجنرال (ريديين) (الذي لا يعتبر المقدم تابعا له) الى فرض عقوبة خمسة عشر يوما توقيفا شديدا بحق هذا الضابط . وافقت القيادة في الجزائر العاصمة على ذلك رغم احتجاج (ليوتيه) الذي حاول التغطية على مرؤوسه الذي لم يعبر (قوير) المعترف به كحدود بين البلدين . ومن المعروف ان (غورو) كان قد طلب الحاق (كولومب - بيشار) بمراكش منذ بضعة اشهر . وهكذا بقيت مسألة السيادة في منطقة الحدود مثار جدل وخلافات بين السلطات الفرنسية المحلية على جانبي الحدود .

الطلبة الجزائريون في الحرب

(١٩٥٥ – ١٩٦٢)

كانت حرب الاستقلال الجزائرية ذات نوعية خاصة ، اطلق عليها الضباط الفرنسيون العائدون من الهند الصينية صفة (الثورة) . فقد اعقبت حركات التمرد القبلية ، التي كانت تفتقر دائما الى التنسيق والتنظيم ، اعمال مخططة ، ومنسقة على الصعيد الوطني والمغربي والدولي ، تم تنظيمها بشكل تستطيع معه الاستمرار حتى النصر النهائي . كان ذلك عمل مناضلين اكثر منه عمل عسكريين ، استطاع ان يوفق وينسق بين الاعمال العسكرية المسلحة والتحرك السياسي المدروس . بدأ هذا العمل من قبل جماعة صغيرة ، ثم ما لبث ان دفع ، طوعا ام كراهية ، كل المجتمع الجزائري الى هذا المعسكر او ذاك . اما مسارح العمليات فقد شملت كافة الاوساط الجغرافية والبشرية في الجزائر وفي كثير من البلدان المجاورة والبعيدة . وقد ساهم الطلاب الجزائريون المسلمون ، التابعون للجامعة الفرنسية ، في هذه الحرب ضمن اطارات مختلفة كثيرة ، حيث لعبوا دورا لا يستهان به مطلقا . قد يستغرب المرء هنا ان ينحاز طلاب ذوو ثقافة فرنسية ضد الدولة التي يدينون لها بكل معارفهم ، ولكن من المؤكد ان الحركة الطلابية الجزائرية ، التي كانت تنادي اصلا بالدمج والتوحيد قد انتقلت الى الاتجاه الوطني منذ عام ١٩٤٥ . صحيح ان منظمي عصيان اول تشرين الثاني ١٩٤٥ لم يكونوا مثقفين بصورة كاملة ، ولكنهم لم يكونوا بمجملهم من الاميين : فقد تلقى معظمهم تعليما ابتدائيا وثانويا باللغة الفرنسية ، كما قدمت لهم الحركة الطلابية مساعدات كثيرة في كافة مجالات العمل .

١ ـ الالتـــزام

ازاء تلك الاحداث التاريخية ، المفعمة بالاخطار والآمال ، كان هناك موقفان محتملان : اللجوء بعيدا عن هذا التيار او الانخراط فيه بشجاعة للمساهمة مهما كلف الامر في صنع المستقبل . ارتفع عدد الطلبة المسلمين في جامعة الجزائر من ٥١٣ سنة ١٩٥٣ ـ ١٩٥٤ الى ٥٨٩ سنة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ ، ثم الى ٦٨٤ سنة ١٩٥٥ ـ ١٩٥٦ . في الوقت نفسه ، ارتفع عددهم من ١٠٠٠ الى ١٤٠٠ في فرنسا ، حيث الكثيرون يدرسون على نفقة ذويهم . لذلك كان من الطبيعي ان يستقبل هذا العصيان بالترحاب من قبل الطلبة المسيسين ، الذين لم يكن امامهم سوى احد حلين : اما الالتحاق افراديا بجبهة التحرير ، او البقاء مؤقتا في الوسط الطلابي من اجل تنظيمه ثم ضمه بصورة جماعية الى صفوف الثـورة .

آ ـ تاسيس الاتحاد العام للطلاب المسلمين الجزائريين :

كانت جمعيات طلاب شمالي افريقيا هي الاطار التقليدي للحياة الاجتماعية والسياسية للطلبة المسلمين الجزائريين . كما كانت تتجاوز الاطار الوطني لانها تضم البلدان المغربية الثلاثة . وقد فشلت في عام ١٩٥٣ محاولة تشكيل تنظيم مغربي موحد ، يضم اتحادات وطنية مستقلة ثلاثة ، وذلك بسبب احداث (اتحاد عام للطلبة التونسيين) لذلك برزت الى الوجود فكرة تشكيل اتحاد طلابي جزائري ، وفي عام ١٩٥٤ ، اسس الطلاب الماركسيون (اتحاد الطلاب الجزائريين في باريس) .

بمبادهة من (جمعية الطلاب المسلمين لافريقيا الشمالية) في الجزائر عقد مؤتمر تحضيري في باريس من ٤ ـ ٧ نيسان ١٩٥٥ ، ضم مندوبين

جزائريين عن كافة الجامعات الفرنسية ، واتخذ فيه قرار تأسيس (الاتحاد العام للطلاب المسلمين الجزائريين رغم معارضة الطلاب الماركسيين في كل من باريس وتولوز ، الذين اسسوا (الاتحاد العام للطلبة الجزائريين) الذي لم يدم سوى بضعة اشهر ، والذي كان يضم كافة الجزائريين (مسلمين او غير مسلمين) المؤيدين للاستقلال .

عقد المؤتمر التأسيسي للاتحاد العام للطلاب المسلمين الجزائريين في باريس من ٨ ــ ١٤ تموز ١٩٥٥ ، حيث قام اول رئيس له (وهو احمد طالب) بالقاء خطاب الهب فيه حماس الحاضرين وعرض اهداف التنظيم الجديد ، الذي كان يرغب في ان يكون (همزة وصل) بين الثقافة الفرنسية والجزائر المسلمة على ان يظل في اطار الحركة الوطنية الجزائرية .

ب ــ تسييس الاتحاد العام للطلاب الجزائريين المسلمين :

ادى التصاعد السريع للحرب في الجزائر وتضاؤل فرص السلام الى دفع هذا التنظيم للعدول عن رغبته في ان يكون (همزة وصل) ، لكي يصبح (وحدة قتالية) تابعة لجبهة التحرير الوطنية . في البداية ، اخذ يدين سياسة القمع داعيا الشعب الفرنسي الى مزيد من التعقل ، الا انه مالبث ، بعد مجازر ٢٠ اب ١٩٥٥ ، ان انحنى امام جميع الضحايا البريئة ، مستنكرا بشدة اساليب القمع الفرنسية ، داعيا الى تجديد الفكر السياسي الفرنسي تجاه المسألة الجزائرية . وبعد الانتخابات التشريعية التي جرت في ٢ كانون الثاني من عام ١٩٥٦ قام هذا الاتحاد بتوجيه نداء علني الى ممثلي الامة الفرنسية لكي يعملوا على وقف اراقة الدماء في الجزائر ، كما احتج على توقيف الطلاب واستنكر اعمال التعذيب . وفي ٢٠ كانون الثاني ١٩٥٦ ، افتتح اسبوعي التضامن مع الطلاب السجناء وضد القمع في الجزائر بيوم اضراب عن الدراسة والطعام تخللت هذا اليوم احداث واشتباكات خطيرة في كل من تلمسان و (مونبيلييه) . اما في الجزائر العاصمة ، فقد تم توجيه نداء يطالب (على الصعيد الطلابي ، باطلاق سراح الطلبة المسجونين فورا ، مع اجراء تحقيق حول مقتل الطالب (زدور) ومعاقبة المسؤولين ، وعلى الصعيد الوطني ،

ايقاف اعمال القمع والاعتراف بالشعب الجزائري وبحقه في السيادة ، وكذلك ضرورة التفاوض مع الممثلين الحقيقيين للشعب الجزائري .

في ٢١ شباط من عام ١٩٥٦ ، حدث اشتباك بين الطلبة الجزائريين والفرنسيين حيث قام (جان مارك موسورون) (الرئيس الفخري للاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين) باتهام (الاتحاد العام للطلاب الجزائريين المسلمين) لانه يفرض نفسه بالقوة على الطلاب الجزائريين . عندئذ رد عليه (احمد طالب) بالبيان التالي :

(اذا كان هناك اي ضغط يمارس على الطلاب المسلمين الجزائريين ، فانه ضغط ضميرهم الذي يدعوهم لعدم البقاء ساكتين امام آلام شعبهم ، كما يحضهم على التضامن مع تطلعاته والمساهمة في نضاله . ونحن نريد ان نؤكد هنا بأنه اذا كان المقصود (بالتمردين) اولئك الرجال الذين يطالبون بالحرية (ولم يلجؤوا الى السلاح الا عندما اقفلت في وجههم كافة الابواب الاخرى) ، والذين يناضلون في سبيل الكرامة والحق في الوجود ، فان جميع المسلمين الجزائريين (والطلاب في طليعتهم) هم من (التمردين) .

وهكذا يقود هذا الاتحاد الطلاب نحو جبهة التحرير . اجتمع مؤتمره الثاني في الفترة الواقعة بين ٢٤ - ٣٠ اذار ١٩٥٦ في باريس ، حيث ضم ستين مندوبا يمثلون اكثر من الف طالب جزائري مسلم ، اي حوالي ٥٠٪ من المجموع العام في هذا المؤتمر ، تم تبني البيان التالي بالاجتماع :

(بما ان الاستعمار ، السبب الاول للشقاء والبؤس ولامية ، هو العدو الاكبر لكرامة الشعب ، فان نضال الشعب الجزائري يعتبر عادلا ومشروعا ، يتمشى مع التطور التاريخي للشعوب ، ولا بد له ان يكلل بالسيادة التامة والاستقلال الناجز .

اما سياسة القوة والقهر والقمع ، لا يمكن لها ان تعيق حركة التحرير الجارفة ، فانها تؤدي الى تراكم الضحايا واستحالة الوفاق المرغوب فيه بين الشعبين الجزائري والفرنسي في المستقبل .

لذلك يطالب المؤتمر بما يلي :

١ ــ اعلان استقلال الجزائر .
٢ ــ اطلاق سراح جميع السجناء الوطنيين .
٣ ــ التفاوض مع جبهة التحرير الوطنية .

في الكلمة الختامية ، برر رئيس المؤتمر ، السيد (خميستي) ، أولوية الجانب السياسي عندما قال : (كيف يمكن ان ندرس عندما نجر في اقدامنا سلاسل العبود الاستعمارية ؟ ان الطلاب الجزائريين المسلمين ، الذين جردوا من شخصيتهم وانتزعوا من جذورهم وابعدوا عن لغتهم وماضيهم ، يطالبون اولا بالحق الذي يساعدهم على ان يكونوا انفسهم ، فيدرسون لغتهم ويستعيدون جذورهم الثقافية . ان قضيتهم الاولى هي الحرية والسيادة قبل اي شيء آخر) .

لذلك درس المؤتمر موضوع تشكيل مجموعات من الممرضين والممرضات لصالح المقاومة من بين طلاب الطب والصيدلة . ونظرا لان جميع اللجان قد اصبحت تحت اشراف مناضلين تابعين لجبهة التحرير الوطنية ، فان احمد طالب ، الذي قام في شهر كانون الثاني المنصرم بمرافقة رئيسه صلاح لونشي لاجراء مقابلة مع السيد بيير مانديس فرانس ، ترك رئاسة الاتحاد العام للطلاب المسلمين الجزائريين لكي يصبح احد معاونيه ، بينما خلفه (مولود بلعوان) على رأس الاتحاد .

ج ــ الاضراب المدرسي :

في مدينة الجزائر عام ١٩٥٥ ، كانت العلاقات جيدة بين (الاتحاد العام للطلاب المسلمين الجزائريين) و (الرابطة العامة لطلاب مدينة الجزائر) ، لان هذه الاخيرة كانت موجهة من قبل شعبة يسارية . الا ان تدخلها لصالح اربعة طلاب مسلمين معتقلين ادى الى قلب هذه الشعبة نتيجة استفتاء جرى في شباط من عام ١٩٥٦ ، بمبادهة من (اجنة العمل الجامعي ؟ للدفاع عن الجزائر الفرنسي ، التي شكلت الشعبة الجديدة . لذلك بدأت الحرب منذ ذلك الحين

بين الاتحاد العام للطلاب المسلمين الجزائريين والرابطة العامة لطلاب مدينة الجزائر وقد تحدث عن هذا الجو السائد آنذاك (عبد الرحمن بطاطة) اثناء محاكمته حيث قال :

(لقد عشنا يوم ٦ شباط من ذلك العام ، ورأينا كيف قرر الطلاب الفرنسيون في الجزائر اغتيال السيد (مندوز) ، الاستاذ في جامعة الجزائر . لقد رأينا كيف قرروا اغتيال اخوتنا المقيمين في المدينة الجامعية ... كنت اجانب كل يوم اولئك الشبان الذين كانوا رفاق دراستنا ، والذين عشت معهم سبع سنوات في القسم الداخلي المدرسة الثانوية ، او الذين جلست واياهم على مقعد دراسي واحد ، الا انهم لم يكونوا يترددون في أشهار مسدساتهم لتهديدنا . لقد عشنا جوا لا يطاق سنة ١٩٥٦) .

كذلك ادت التدابير التي اتخذها الوزير المقيم (روبير لاكوست) ، لتسهيل ترقية (المسلمين الفرنسيين) في الوظائف العامة ، الى القاء النار على البارود، دعت الرابطة العامة لطلاب مدينة الجزائر الى الاضراب عن الدراسة في ٣ ايار من عام ١٩٥٦ وحتى اشعار آخر استنكارا لهذه المحاباة . كان من الطبيعي اذن ان يتجاهل الاتحاد العام للطلاب المسلمين الجزائريين هذه الدعوة ، ولكنه قام ، علاوة على ذلك ، باصدار بيان يوضح فيه ان اصلاحات الوزير المقيم لا يمكن ان تعتبر حلا مناسبا للمسألة الجزائرية . في ٨ ايار ، تعرض الوزير لاكوست للتهزىء من قبل بعض الطلاب الفرنسيين ، فرد على ذلك بابعاد الاستاذ (بوسكيه) ، الذي اعتبره مسؤولا عن شغب الطلاب . هنا دب الخوف في نفوس اعضاء الرابطة العامة لطلاب مدينة الجزائر فوضعوا حدا لاضرابهم في ١١ ايار ، ولكنهم كرروا دعوتهم لاعلان التعبئة العامة والغاء كافة مهل الانذار وتشكيل فرقة من المتطوعين الجامعيين . وفي ١٧ ايار ، اعلنت وكالة (اسوسييتدبريس) ان الطلاب الجزائريين المسلمين في جامعة تونس العربية قد تلقوا دعوة من (بن بللا) ، يعرض فيها عليهم وظيفة موجهين سياسيين في جبهة التحرير . في ١٨ ايار ، وبحجة الرد على بيان الرابطة العامة لطلاب مدينة الجزائر ، اجتمع الطلبة المسلمون في مدينة الجزائر واتخذوا قرارا بالدعوة

لاضراب غير محدود عن الدراسة والانخراط في صفوف جبهة التحرير الوطني. وقد طبع منشور بذلك ووزع ليلا في الاوساط الجامعية كما اختفت شعبة مدينة الجزائر التابعة للاتحاد العام للطلاب المسلمين الجزائريين وانتقلت الى العمل السري . كذلك توجهت قبل ذلك بقليل اول قافلة من المتطوعين للانضمام الى المقاومة السرية .

اذا صح ماورد في منشور (الطلاب الجزائريين المناضلين) ، فان (هذا الموقف قد استقبل بحماس بالغ من قبل مجموع الطلبة الجزائريين في مراكش وتونس وفرنسا ، فقرروا بصورة عفوية الاضراب عن الدراسة تضامنا مع زملائهم) .

بعثت شعبة الجزائر مندوبين عنها الى فرنسا لتعميم الاضراب ، كما ارسلت الوفود للتوجيه والاعلام . خلال الفترة الواقعة من ٢٠ ــ ٢٥ ايار ، جرى جدال حاد في كافة الشعب حول حسنات وسيئات الاضراب غير المحدود، الا انها وافقت كلها في النهاية باستثناء شعبة تولوز ، عندما صدر قرار اللجنة القيادية للاتحاد العام ، والذي يعتبر في الحقيقة قرار جبهة التحرير نفسها . لقد كان المعارضون للاضراب يخشون من ان يؤدي التوقف عن الدراسة الى حرمان الجزائر من كوادرها المختلفة ، ولكن التيار الاقوى كا نيرى ضرورة انتزاع الاستقلال اولا عن طريق تعزيز كوادر جبهة التحرير وجيش التحرير الوطني . الا ان اللجنة القيادية للاتحاد لم تكن تستطيع توجيه دعوتها لانضمام الى المقاومة دون ان تختفي هي الاخرى ، كما فعلت شعبة مدينة الجزائر ، وتنتقل الى العمل السري . لذلك رأيناها تكتفي في بيانها الصادر يوم ٢٥ ايار ، بشرح دعوة الجزائر وتأييدها بصورة غير مباشرة دون أن تتبناها رسميا وعلينا . لذلك امتد الاضراب غير المحدود وحده ليشمل كافة الطلاب المسلمين الجزائريين في جامعات فرنسا وتونس ومراكش . وقد جاء الاعلان عن ذلك بمثابة حملة مركزة لابراز اهمية الحل السلمي عن طريق التفاوض . كذلك وجهت الاف الرسائل الى اعضاء الحكومة والبرلمان وكبار الشخصيات السياسية والدينية ، بالاضافة الى رؤساء الجامعات وعمداء الكليات واساتذة

الجامعات في فرنسا . لقد تم نشر بيان ٢٥ ايار بشكل منشور مطبوع تضمن الآتـي :

(اخيرا ، نوجه هذا النداء الجديد ، الذي نعتبره صرخة انذار لضمير كل فرنسي لكي يدرك مدى خطورة الوضع الراهن في الجزائر . ليكن هـذا النداء دافعا للجميع ، في هذا النزاع الدموي المؤلم ، لكي يؤيد ضرورة دعـم المفاوضات والسلام . كذلك اوضحت اللجنة القيادية ان قرار الطلبة الجزائريين بالاضراب ، يجب الا يفسر على انه (عمل عدائي ضد الجامعة الفرنسية او انكار لثقافة سيظلون متعلقين بها بصدق) .

وهكذا اراد الاتحاد العام للطلاب المسلمين الجزائريين ان يعبر النهـر دون ان ينسف الجسور . ولا شك في ان لهجته المعتدلـة كانت متناقضـة تماما مع العنف الثوري لشعبة مدينة الجزائر .

لقد امرت جبهة التحرير الوطنية باعلان الاضراب لكي نعزز كوادرهـا وتؤكد سلطتها على الطلاب كغيرهم من سائر فئات الشعب الجزائري . لذلك كان لا بد لها ان تحدد لهؤلاء الطلاب والطالبات مهمات واعمالا دقيقة في المجالات السياسية والادارية والثقافية والصحية والاقتصادية . الا انه من الضروري ايضا استدراج الطلاب والطالبات المترددين رغم النداء التاريخي الموجه في ايار ١٩٥٦ من قبل الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين . وهذا ما دعا هذه المنظمة لتوجيه نداء جديد في شهر تموز ردا على قرار الادارة الفرنسية التي قررت دعوة الطلاب اثناء العطلة الصيفية للخدمة في (الفصائل الاداريـة المتخصصة) لكي تسهل قيادتهم ومراقبتهم وقد جاء في هذا النداء ما يلي :

(ان الاستجابة لهذه الدعوة الفرنسية يعني انكارك لنفسـك واستعدادك لمحاربة رفاقك الطلاب والطالبات ، الذين يبذلون ارواحهم منذ اكثر من ثلاثـة اشهر دفاعا عن شرف الشعب الجزائري وكرامته ، ان ذلك سيعتبر خيانةسافرة للوطن والمواطنين . لذلك لا بد من افشال هذه المحاولة الجديـدة لـلادارة الاستعمارية العمياء ، التي تريد اشراكك في جرائمها بأي ثمن . فالتحـق

قبل فوات الاوان في صفوف جيش التحرير الوطني وجبهة التحرير الوطنية حيث ينتظرك واجب مقدس) .

صحيح ان المقاومة والمنظمات السرية قد استفادت كثيرا من الاضراب عن الدراسة ، ولكنها لم تمتص كافة الطلاب ، الذين نفذ معظمهم الاضراب عن قناعة او خوف ، الا انهم وجدوا صعوبات كثيرة في العيش بعد الغاء المنح والامتيازات الممنوحة لهم كطلاب ، مما دفع بعضهم الى تسجيل انفسهم في العام الدراسي ١٩٥٦ – ١٩٥٧ ، على ان يقاطعوا الدروس فيما بعد او يطلبون اعفاءات من الحضور . لذلك تشكلت لجنة الدعم في باريس خلال شهر كانون الاول من عام ١٩٥٦ لمساعدة هؤلاء . وقد كان من جملة مؤسيسي هذه اللجنة عبد الرحمن فارسي ، الرئيس السابق للجمعية الوطنية الجزائرية . كذلك حدثت اصطدامات كثيرة بين الطلاب المؤيدين للجزائر الفرنسية من جهة ، وافراد الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين من جهة ثانية . وهكذا كان لا بد من ان ينخفض عدد الطلاب المسجلين في كافة الجامعات ، حيث هبط من ٢٠٨٠ الى ١٨١١ .

٢ ــ في النســق الاول

وهكذا انتظر معظم الطلاب انتهاء الاضراب ، بينما قامت فئة قليلة باحراق سفنها والانضمام نهائيا الى جبهة التحرير الوطنية وجيش التحرير الوطني . في الحقيقة ، لم يجتذب نداء الجزائر العاصمة سوى المقتنعين الذين انتقلوا من حيز النوايا الى مجال الالتزام والعمل الفعلي .

آ ــ العمل في الخفاء :

مما لا شك فيه ان عددا من الطلاب قد لعبوا دورا هاما في تأسيس النواة الفرنسية لجبهة التحرير الوطنية ، كما كلف بعضهم بالاتصال مع الوسـط العمالي لشرح الحقائق للذين كانوا مخدوعين (بالحركة الوطنية الجزائرية) التي اسسها (مصالي الحاج) خارج جبهة التحرير الوطنية . كذلك استلـم آخرون وظائف عالية تتناسب مع مؤهلاتهم في مجالات التمويل او الدعايـة من امثال (زروقي) و (مادي) . وعندما ارسل (صلاح لوانشي) من قبل الجزائر العاصمة في شهر كانون الاول من عام ١٩٥٥ للتفاوض مع حكومـة الجبهة الجمهورية ، التقى بالسيد (بيير مانديس فرانس) عن طريق احمد طالب (رئيس الاتحاد العام للطلاب المسلمين الجزائريين) وبرفقته . في كانون الثاني من عام ١٩٥٧ ، رأينا المبعوث الجديد للجزائر ، محمد لبجاوي ، يتوجه ايضا الى الاوساط الجامعية لتنظيم امانة سر دائمة للجنة الاتحادية ، التي ضمت بشكل خاص كلا من محمد حربي ، المدير السابق لاتحاد الطلبة الجزائريين في باريس ، و (رضا مالك) ، رئيس (جمعية الطلاب المسلمين لشمال افريقيا) وعضو ادارة الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين .

بعد اعتقال كل من لبجاوي ، لوانشي وطالب ، بالاضافة الى كافة اعضاء

اللجنة الاتحادية تقريبا في نهاية شهر شباط من عام ١٩٥٧ ، وبعد استلام (طيب بو الحروف) ، بدت الادارة الجديدة ، التي ارسلت من تونس في تموز تموز من عام ١٩٥٧ ، اكثر حذرا تجاه المثقفين . الا ان عددا من الطلاب كانوا قد اصبحوا ، قبل الاضراب او خلاله ، مناضلين حقيقيين دائمين في الجبهة ، بعد ان قرروا التضحية بدراستهم . وقد تم اعتقال بعض الاشخاص الهامين من هذه الفئة في نهاية عام ١٩٥٨ حيث عذبوا واسيئت معاملتهم كثيرا من قبل رجال الشرطة . الا ان الطلاب الذين استأنفوا الدراسة في شهر تشرين الاول من عام ١٩٥٧ تجمعوا من جديد برابطة جامعية تابعة لجبهة التحرير بعد حل الاتحاد العام للطلاب المسلمين الجزائريين من قبل السلطات الفرنسية في كانون الثاني من عام ١٩٥٨ . كانت المهمة الاساسية لهذا التنظيم الجديد هي المحافظة على استمرار ولاء الطلاب لجبهة التحرير وتأمين دوام التوعية والتأهيل العقائدي بشكل يحضر هؤلاء الطلبة لمهامهم المستقبلية ككوادر الجمهورية الجزائر المستقلة .

اما في الجزائر ، فقد اتصل الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بشكل مبكر مع منظمة جبهة التحرير الوطنية . فاعتبارا من شهر اذار لعام ١٩٥٥ ، شكل (ابان رمضان) في الجزائر العاصمة فرعا للثورة ، مجتذبا اليه كلا مزين خده وسعد دهلب وصلاح لوانشي والشيوعيين القديمين عمار اوزقان ومحمد لبجاوي اما العناصر المحركة الاساسية لهذا التنظيم الطلابي ، فكانت : محمد رشيد عماره ، الرجل الموثوق لدى (رمضان) ، محمد بن يحيى ، رئيس الاتحاد المحلي العام للطلبة المسلمين الجزائريين ، علاوة بن بطوش، سعيد هرموش وغيرهم الذين كانوا يتوقدون حماسا ثوريا . واما عمليتهم الرئيسية فكانت الهجرة الجماعية التي تمت يوم ١٩ ايار ، حيث توزعوا بين العمل في الخفاء والخارج والمقاومة . في التنظيم الذي اقيم من قبل مؤتمر سوجام في آب ١٩٥٦ ، كانت منطقة الجزائر العاصمة تخضع للسلطة المباشرة (للجنة التنسيق والتنفيذ) ، وهي الجهاز التنفيذي لجبهة التحرير الوطنية وجيش التحرير الوطني . وقد كان المسؤول عن القيادة السياسية لهذه المنطقة هو (بن خده) يعاونه الطالب (ابراهيم شرقي) الملقب ب (حميده) اما الكتبي (محمود بوعايد)،

فقد كلف بطباعة صحيفة الجبهة ، المسماة (المجاهد) ، بالاضافة الى بعض الاعمال المالية . كذلك شغل طلاب آخرون وظائف مسؤولين سياسيين في المناطق ، كما قاد بن مهيدي جيش التحرير الوطني في المنطقة المستقلة ، والذي كان يتألف من مجموعات وشبكة القنابل من ابرز افرادها بوعالم او سديق ثم عبد الرحمن طالب ، حيث اعتبر الاول مشرفا سياسيا على مجموعة الكيميائيين الشيوعيين ، بينما كان الثاني تقنيا في المتفجرات . كانت هناك ايضا طالبات من امثال : زهرة دريف ، سامية الاخضري ، جميلة بوعزه ، حسيبة بنت بوعلي ، كلفت بوضع القنابل في الاماكن العامة من الاحياء الاوروبية. بعد رحيل لجنة التنسيق والتنفيذ ، على اثر هجوم المظليين في نهاية شهر شباط من عام ١٩٥٧ ، قامت الادارة الجديدة لهذه المنطقة باعطاء مسؤوليات اكبر للمناضلين من الطلاب ، وقد عين (بلعيد عبد السلام) (مؤسس الاتحاد الوطني للطلاب المسلمين الجزائريين) مفوضا سياسيا اقليميا بدلا من ابراهيم شرقي ، ولكنه لجأ الى مراكش قبل ان يصله نبأ تعينه . اتخذ القائد السياسي ـ العسكري يوسف سعدي الآنسة زهرة دريف كمساعدة دائمة ، كما اوكل الفرع السياسي الى طالب كان مناضلا في شبكة القنابل ، وهو عبد الرحمن بن حميده . كذلك اوكل قيادة فرع الاتصالات والاستخبارات لطالب يدعى (حاج اسماعيل) ، الملقب بكمال ، بينما عهد برئاسة لجنة التحرير للطالب (هوهات) الملقب (محفوظ) . اما خلفه (علي لايوانت) ، فاتخذ مساعدة له الطالبة (حسيبة بنت بوعلي) .

صحيح ان التنظيمات السرية للمدن الجزائرية الاخرى (غير الجزائر العاصمة) لم تكن معروفة جيدا ، ولكن المؤكد ان الطلاب ساهموا فيها بقسط وافر ايضا ، حيث كان بعضهم يكتفي بالاضراب عن الدراسة وتوزيع المناشير وجمع التبرعات ، بينما سلك البعض الآخر طريق المقاومة السرية .

ب ـ المقاومة السرية :

كانت المقاومة السرية تمثل بالنسبة للطلبة الجزائريين تكريس الالتزام ، ويرمز اكثر من اي شكل آخر للنضال الى القطيعة النهائية مع حياة الدعة

والامن النسبي ، والى التضحية بالمصلحة الشخصية في سبيل القضيــة الوطنية . فالمقاومة هي اقتحام الاخطار وممارسة الحرية الوطنية ، لذلـك كان رجال المقاومة يتمتعون بشعبية اسطورية ويحاطون بهالة من القدسية ، وخاصة من قبل الطلاب . وهكذا لا يستغرب مطلقا بقاء عدد من هؤلاء الطلاب في صفوف المقاومة حتى بعد انتهاء الاضراب عن الدراسة .

الا ان المستغرب ضعف مساهمة الطلاب في الهبة الجماهيرية التي صوتوا عليها بالاجماع . فمن الـ (١٥٧) مجندا الذين عينوا لاتباع دورة التأهيـل السياسي التي نظمتها الولاية الرابعة ، كان عدد الطلاب لا يتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة . لذلك يبدو ان حوالي ١/١٠ فقط من اصل الـ (٦٠٠) طالب مسلـم في مدينــة الجزائـر قــد التحقـوا فـي الجبـال فـي كافـة الولايات الجزائرية . ولا بد هنا ان نأخذ بعين الاعتبار اولئك الذين جاؤوا من فرنسا وتونس ومراكش . يمكن القول ان المقاومة هي انعكاس للشعب وهـذا ما جعل نسبة المثقفين ، القليلة عموما ، ضئيلة في صفوف المقاومة الا أن نوعية هؤلاء قد عوضت عن كميتهم دون شك . اضف الى ذلك ان صعوبة الحيـاة في الجبال ،حيث الحركة الدائمة والتنقل المستمر على الاقدام ، قد ساهمت في الحد من عدد المتطوعين ، فرجل المقاومة لا يمكنه الاستمرار اذا لم يكن يتمتع بقدرة كبيرة على التحمل وايمان راسخ ينسيه نفسه ويجعله فوق مستوى الانسان العادي . اما عزاء هؤلاء المناضلين فهو (انه ستكون لديهم ذكريـات يحكونها لاحفادهم) اذا ظلوا على قيد الحياة ...

١ ـ كيف يمكن الاستفادة من الطلاب ؟

في البداية ، ونظرا لصعوبات التأقلم ، كان الطلاب يعتبرون كاختصاصيين ثمينين ونادرين من حيث المؤهلات ، ولكنهم سريعوا العطب ، من الافضـل تجنيبهم الاخطار الجسيمة والمشقات الكبيرة قدر المستطاع . لـذلك كـان معظمهم يعمل كأطباء او ممرضين وممرضات في صفوف جيش التحرير . الا ان القرى الواقعة تحت سيطرة المقاومة ، والواقعة في (المناطق المحرمــة) ، كانت تعيش في شبه عزلة تامة . لذلك كان على قيادة المقاومة ان تقوم بتنظيم التبادل الاقتصادي بين المناطق المتكاملة داخل الولاية ، هذه الوظيفة الاقتصادية

كانت تلقى على عاتق الطلاب في الكثير من الاحيان . في الولاية الثالثة مثلا ، اوعز العقيد (عميروش) باعطاء دروس في محو الامية للمقاتلين باللغتين ، العربية والفرنسية ، كما انشئت المدارس الابتدائية في العديد من القرى حسب الامكانيات المتوفرة ، وهذا ما دعا العقيد قائد الولاية الرابعة للاعتزاز بال (١٢٠) مدرسة المقامة في ولايته سنة ١٩٥٦ . كذلك كان المثقفون يساهمون في تسييس المقاومة والشعب ، وفي رفع الروح المعنوية عن طريق المنشورات والبيانات : (الثورة) ، (صوت الجبل) ، (حرب العصابات) وغيرها ... كما كانوا يقومون بأعمال السكرتارية والمحاسبة لدى الدوائر الحاكمة في الولايات .

الا ان عددا لا يستهان به من هؤلاء الطلاب تمكنوا ، بسرعة كافية ، من التأقلم والانتقال الى صفوف المقاتلين ، وخاصة في الولاية الرابعة ، حيث انضم بعضهم الى الوحدات المختارة كالمغاوير ، بينما اصبح البعض الآخر قادة لهذه الوحدات الفدائية وهكذا جاء اندماج (المثقفين) بالشعب تدريجيا الى ان اصبح تاما خلال فترة قصيرة نسبيا ، حيث صاروا اهلا لان ينفذوا بنجاح كافة المهمات كمناضلين كاملين في صفوف جبهة التحرير الوطنية وجيش التحرير الوطني . ومن الجدير بالذكر هنا ان نورد ذلك المقال الذي نشر في صحيفة (المجاهد) ، العدد رقم (٨) الصادر في ٥ آب ١٩٥٧ ، نظرا لندرته من جهة ، ولان خصص لصالح طالب مذكور بالاسم :

(سنتحدث اليوم عن طالب شاب من الاغواط ، يدعى عبد القادر بو نادجا، الذي عين في البداية مفوضا سياسيا لاحد القطعات . كان عمره آنذاك تسعة عشر عاما ، ولم يكن يعرف لحظة من الراحة لانه كان يخصص اوقات الراحة النادرة للمطالعة لكي يغذي ثقافته ويوسع افقه ويزيد من مردوده . اما في الاجتماعات ، فكان يتميز دائما بملاحظاته الذكية وتحليلاته البعيدة النظر . في القرى ، كان يفضل زيارة افقر الناس لكي يتعرف على متاعبهم ويحاول تذليلها ، كذلك كان يتحدثهم عن سرقة اراضينا ونهب خيراتنا من قبل العدو المحتل ، كما يتحدثهم بتفاؤل كبير عن الجمهورية الديمقراطية الاجتماعية التي ستقيمها الثورة قريبا .

الا انه كان يتمنى ان يصبح جنديا مقاتلا : فالضغط الوحشي الفرنسي الذي يمارس على الشعب كان يدفعه للانتقام . كان يريد ان يحمل السلاح لكي ينتقم من اولئك القساة الظالمين الذين يعذبون النساء ويحرقون المنازل وينهبون المحاصيل ويدمرون المدارس . واخيرا ، تحققت امنيته هذه والتحق باحدى السرايا ، حيث برز ايضا كمواطن ممتاز ومقاتل محنك شجاع في احد الايام ، كان على راس جماعة تحت قيادة المساعد طاهر ، وهو طالب سابق ايضا ، يقوم بالانقضاض على موقع استراتيجي ، يتقدم باصرار وعناد رغم النيران الكثيفة المنهمرة من حوله . لذلك ما لبث ان احتل مع رفاقه مرتفعا مشرفا هاما ، استطاع ان يقتل منه العديد من المغاوير الفرنسيين السود ثم ما لبث عبد القادر ان نهض مرة ثانية واعطى اشارة الانقضاض الاخير ، وهو يهتف (الله اكبر) ست مرات متتالية . هنا اصيب الطالب الشاب برشة من رشاش خفيف ، فسقط ارضا وهو يهتف (الله اكبر) ، (عاشت الجزائر) (عاش الشعب) ، ثم اسلم الروح بين ذراعي المساعد طاهر الذي اغمض له عينيه واقسم بأن يتابع عمله وينتقم له) .

٢ ــ العلاقات مع الشعب :

اوحت المقاومة للشبان الجزائريين بنوع جديد من الادب ، وهاهي بعض الابيات من قصيدة اسمها (حرب العصابات) للطالب الاديب (بوعالم طيبي) ، المسؤول عن الدعاية في الولاية الرابعة :

(اخي ارفع عينيك الى سماء الجزائر الزرقاء ، وانتبه ان فيها نجمة ناقصة يجب تعليقها غدا ...) .

(استمع الى النحيب الآتي من المنازل المدمرة والقرى المحترقة ، لم يعد هناك في الساحة العامة قرب النبع سوى جثث مبعثرة وبرك من الدماء تجف ببطء تحت اشعة الشمس ...) .

وهكذا ، ازاء العنف الظالم للمستعمر ، ينتصب العنف العادل للمقاومة وللانتقام الشعبي ، لذلك يتابع الشاعر الشاب وصفه قائلا :

(انظر تحت ضياء القمر هذه الظلال الرمادية ، الكامنة والمتربعة خلف الصخور والاعشاب ، انهم جيش التحرير ينتظرون وصول العدو بفارغ الصبر ...) .

(استمع الآن الى اصوات الرصاص تمزق سكون الليل ، وانظر اخوانك الفدائيين ينقضون على الاعداء كالنمور ...) .

(ففي كافة دروب جبالنا ، وفي اعماق ظلمة غاباتنا ، وخلف نوافذ المنازل وعلى زوايا الشوارع في مدننا ، ملايين الرجال والنساء والاطفال يستعدون للغد المشرق ...) .

وهكذا كان الشغل الشاغل للطلبة الجزائريين ان يأخذوا اماكنهم في صفوف شعبهم المناضل ، وان يتخلوا عن اسلوب حياتهم السابق ، الذي يحاول طمس هويتهم الحقيقية ويحجب عنهم واقع شعبهم خلف واجهة اوروبية لاتمت الى ماضيهم ومفاهيمهم وحضارتهم بصلة ... ان مجرد صعود هؤلاء الطلاب الى الجبال والقرى بدلا من التسكع في الشوارع او الجلوس في المقاهي، يعتبر ثورة بحد ذاته ، انه اشبه بعودة النهر الى منبعه ، هذه العودة الى الجذور تجعل المثقب يلمس الحقائق الاجتماعية الاساسية للجزائر ، والتي تحاول الواجهة البراقة لمدينةالجزائر اخفاءها عن الزائرين ، بل وحتى عن اولئك الفرنسيين الذين يعتبرون انفسهم اسيادا ويتحدثون باسم الجزائر .

هذه هي (صفية بازي) و (فضيلة مسلي) و (مريم بلميهوب) اللواتي كن من اوائل المرضات في جيش التحرير الوطني ، مما لا شك فيه ان حياة المقاومة والعيش في الجبال قد تركا طابعهما على هذه الفتيات الشابات اللواتي وقعن في الاسر خلال شهر تموز من عام ١٩٥٦ : منها هي الآنسة (فضيلة) تعلن امام القضاة :

(لقد عالجت المواطنين الجرحى وسكان الجبال القابعين في البؤس والفقر ، وضحايا القصف الهمجي والحرائق واعمال القمع . لقد شاهدت مئات العائلات تفر من منازلها هربا من التعذيب والاغتصاب والموت . لقد قمت ايضا بتدريس اطفال لم يعرفوا المدارس مطلقا) .

اما (مريم بلميهوب) ، فانها تعكس نفس الحقائق بتفاصيل ادق :

(لم تكن جهودي وخدماتي وقفا على المقاتلين الجزائريين وحدهم ، بل شملت كذلك السكان المدنيين الذين كانوا في وضع يصعب وصفه هنا . فسوء التغذية وامراض السل والسفلس و (الراشيتيسم) منتشرة في كل قرية مررنا بها . ولا شك في انكم تعرفون تلك الاكواخ الحقيرة التي تنخفونها دائما على الشخصيات التي تزور الجزائر .

لقد عالجت كذلك المدنيين الذين تعرضوا لقصف الطائرات الفرنسية . فالجيش الفرنسي يدمر ويحرق المنازل والغابات ، كما لجأ في كثير من الاحيان الى ابادة قرى بكاملها ، بعد ان قتل نساءها وشيوخها واطفالها . عالجت مرة طفلا في الثانية عشرة من العمر ، تعرض التعذيب والتشويه ، ثم ألقي به في احدى الحفر بعد ان اعتقد جلادوه بأنه فارق الحياة ، وبعد ان قتل والده ووالدته امام عينيه دون رحمة . هذا هو ايها السادة ما تسمونه (العمل السلمي والحضاري لفرنسا في الجزائر) ، وهذا هو الوجه الذي تظهر فيه فرنسا هنا حفاظا على مصلحة حفنة من المستعمرين الذين يستغلون الشعب الجزائري ابشع استغلال) ...

الا ان مهمة التوجيه السياسي ، الملقاة على عاتق الطلاب ، لم تكن دائما سهلة ، فالثورة بالنسبة لبعض الفلاحين كانت تتجلى بظهور (غرباء) يزعمون انهم مصلحون جاؤوا لتغيير الواقع القائم وتحسينه . لذلك كان لا بد من افهام الناس اسباب قيام الثورة وباسم من قامت ولصالح من ؟

هل يمكن الاستنتاج من هذا ان سكان الجبال كانوا يجهلون الشعور الوطني الجزائري ؟ يبدو ان هذا هو رأي (الخيام) ، المفوض السياسي للمنطقة المستقلة اداريا ، حيث كتب يقول :

(من المؤكد ان ثقافة شعبنا مازالت اولية ، وهذا ما يجعل بعض التصرفات تصدمنا احيانا ، لذلك علينا ان نفهم الاسباب والمبررات بدلا من الاكتفاء بالحذر او الاستغراب . ومن الضروري جدا ان نأخذ بعين الاعتبار القواعد الاجتماعية

لشعبنا اذ ما زالت توجد في اريافنا رواسب كثيرة زرعها العدو ، منذ عام ۱۸۳۰ ، في النفوس ، مستميتا لتجريدنا من هويتنا الحقيقية الاصلية . الا ان هذه الرواسب لن تلبث ان تزول ، لان شعبنا قد قام بخطوات هائلة على طريق التقدم ، وهذه مفخرة جديدة تضاف الى سجل جبهة التحرير وجيش التحرير . اما دورنا الآن ، فهو تحديد اسباب نقاط الضعف بغية التصدي بشجاعة وفعالية الجذور المرض الحقيقية) .

صحيح ان هذا التحليل مصيب من حيث المبدأ ، ولكن لا بد من القول هنا بأن تجريد الجزائر من هويتها الاصلية قد ظهر بشكل خاص في المدن ، حيث يوجد ۱۰/۹ السكان الاوروبيين . اما المناطق الريفية التي خضعت العملية (التجريد) هذه ، فهي محصورة في سهول (ميتيدجا) و (شليف) ، (وهران) و (بون) ، وليس في الجبال التي يعمل فيها الثوار .

يعتقد انصار الجزائر الفرنسية انه لا يوجد (شعب جزائري) : بل يوجد في الجزائر عشرة ملايين فرنسي ، منهم فئة (من اصل اوروبي) والباقي (فرنسيون مسلمون) لا يخضعون (للمتمردين) (والمقصود هنا الثوار) الا نتيجة الارهاب .

نحن لا نريد هنا ان نناقش آراء الطرفين ، ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو : هل يعتبر (المسلمون) انفسهم فرنسيين فعلا ؟ كلا بكل تأكيد ، وها هي لغتهم تثبت ذلك ، كما ان جميع الجزائريين المسلمين يتحدثون عن فرنسا والفرنسيين بلغة الشخص الثالث (الغائب) . صحيح ان الثوار كانوا يعيشون على حساب سكان الجبال والارياف ، ويشكلون بذلك عبئا اضافيا ، ولكنهم كانوا يقدمون لهم بالمقابل العناية الصحية والتعليم والمساعدة ، مبرهنين بهذا على ان الثورة في خدمة الشعب .

۳ ـ العلاقات مع المقاتلين :

كان انضمام المثقفين الى المقاومة السرية يطرح مشكلة اخرى : وهي مسألة التفاهم والثقة بينهم وبين الثوار القدامى الاميين او العصاميين . فقد

كان مؤسسوا المقاومة وروادها الاوائل يتميزون بالخبرة القتالية والصلابة بدلا من الشهادات ، ما هو الدور الذي يمكن ان يتركوه لهؤلاء القادمين الجدد ؟ اهو دور الموظفين المتخصصين بدون سلطة ، ام دور المناضلين الكاملين الذين يمكن ان يتحملوا اكبر المسؤوليات ؟ هل سيجدون فيهم منافسين مزاحمين ام مساعدين لهم قيمتهم الكبيرة ؟

كان اول تماس للطلاب مع اخوانهم في النضال تجربة لا تنسى ، حيث جاء الواقع ليحل محل الخيال والافكار المسبقة . هل كان في ذلك خيبة امل ؟ في الحقيقة ، لقد اختلف الوضع حسب الحالات والاماكن : فالممرضات الثلاث، اللواتي اتينا على ذكرهن آنفا ، لم يخب املهن ، بل تأكدت لديهن الصورة السابقة التي كونتها هذه الفتيات عن المقاومة ، وها هي (صفية بازي ؟ تقول اثناء محاكمتها :

ان جريمتي الوحيدة كممرضة ، هي انني اعتنيت بالمقاتلين الجرحى . ليس هؤلاء الرجال اشرارا كما تتصورون ، بل هم رجال تخطئون في حكمكم عليهم لانكم لا تعرفونهم . لقد حمل هؤلاء الثوار السلاح بعد ان ادركوا عدم جدوى كافة الوسائل الاخرى لنيل حريتهم . انهم اناس يعتزون بأنفسهم وبوطنهم ، ولو اردتم لامكنكم الاتفاق معهم على اقامة صداقة حقيقية فرنسية - جزائرية ...) .

كذلك اعلنت (مريم بلميهوب) تقول :

(لقد احتاج جيش التحرير الوطني الى ممرضات للعناية بالجرحى من رجال المقاومة فأعلن عن حاجته الى فتيات للقيام بهذه المهمة النبيلة الرائعة . بلغني هذا النداء ، فلم اتردد لحظة واحدة في تلبيته ، وهكذا فعل عدد من اخواتي الجزائريات اللواتي ادركن انهن لن تستطعن البقاء خارج حلبة النضال . لقد اعتنيت باخوتي الجرحى الذين كان شفاؤهم مصدر سعادتي واعظم مكافأة اطمع بها . اسمحوا لي ايها السادة بأن اقدم لكم الوجه الحقيقي لهؤلاء المناضلين الجزائريين ، الذين تقولون عنهم انهم لصوص خارجون على القانون ، وارهابيون اشرار . كلا ايها السادة ! انهم رجال لم يعودوا يطيقون

الظلم والاضطهاد ، فحملوا السلاح وفضلوا الموت لكي لا يعرف اولادهم نفس المصير ...) .

الا ان هناك حالات نادرة اصيب فيها المثقفون بخيبة امل كبيرة ، لانهم لم يلعبوا الدور المتوقع، ولان الوسط الذي عاشوا فيه كان دون المستوى المنتظر . اما الدليل على وجود هذه الفئة الثانية من المثقفين ، فهي (التصفيات) التي اجتاحت الولايتين ، الثالثة والرابعة ، بين عامي ١٩٥٨ و ١٩٥٩ ، عندما بدأ الشك يساور القادة بوجود خونة تسربوا الى صفوف منظمات جبهة التحرير الوطنية . لذلك كان من الطبيعي ان تحوم الشبهات اولا حول اولئك المثقفين المشبعين بالثقافة الفرنسية ، وخاصة في الولاية الثالثة ، التي كان يقودها العقيد (عمروش) ، وقد بلغ الرعب في هذه الولاية حدا اصبحت الامية معه ضمانة للامن وحصانة من الشبهات كانت الامور في الولاية الرابعة تسير بشيء من الاعتدال ، ولكن مجيء (سي صلاح) خلفا لـ (سي محمد) ، ادى الى رفع تقرير في ٢٧ اب ١٩٥٩ ، ورد فيه ما يلي :

(لقد تم استجواب ٤٨٦ شخصا ادينوا واعدموا : ٤ ملازمين اولين ، ٥ ملازمين ، ١١ مرشحا ، ١٩ مساعدا ، ٣٥ رقيبا اولا و ٤٠٩ جنود) ثم اضاف التقرير يقول :

(يوجد في هذه الزمرة عدد كبير من المتعلمين ومن طلاب الثانوية الفرنسية ــ الاسلامية لـ (ابن اكنون) .

قبل الخروج باستنتاجات ، يجب التأكد من صحة هذه الوقائع : في الجانب الفرنسي، لا يوجد من يعتقد او يصدق وجود مؤامرة في الولاية الثالثة، بينما يعتقد الكثيرون بوجود مؤامرة في الولاية الرابعة . وقد اعترف (سي صلاح) بأن التحقيقات قد تمت تحت ضغط التعذيب ، الا انه اضاف قائلا : ! من الطبيعي الا يعترف المتهمون بجريمتهم بسهولة نظرا لعلمهم بما يترتب على اعترافاتهم من خطورة) . لذلك يمكن الاعتقاد ، دون المس بالروح الوطنية لفئة الطلاب (كما فعل الكثيرون من النقاد الفرنسيين) بأن التجربة القاسية للمقاومة السرية قد جعلت بعض الطلاب يميلون نحو نوع من الواقعية الاقتصادية

والعسكرية ، وخاصة بعد طرح ما سمي بـ (سلام الشجعان) والاعلان عن (خطة قسطينية) . الا ان هذا لا يعني مطلقا ان عدلوا عن الروح الوطنية الجزائرية او انهم قبلوا بالجنسية الفرنسية . وها هو (سي صلاح) يستعرض هنا الحجج الرئيسية التي استندت عليها دعاية المتآمرين فيقول :

(لقد طالت الحرب اكثر من اللازم ، وها هو شعبنا يتألم ويدفع الكثير من الضحايا ، بينما المثقفون يتضاءلون او لا يحتلون الوظائف الهامة التي تتناسب مع امكانياتهم . لذلك يمكن الوثوق بالجنرال ديغول ، وقد يكون الاستقلال على مراحل حلا مقبولا لان ديغول يعرض علينا سلاما مشرفا ، ان ديغول رجل صادق يمكن التفاوض معه ، وهو يميل سرا نحو فكرة استقلال الجزائر) .

وهكذا نرى ان تطرف بعض الفرنسيين ، ووضعهم للروح الوطنية الطلابية موضع الشك ، لا يمكن ان يكون صحيحا بصورة عامة . وحتى ما اشيع عن (عميروش) ومعاداته للمثقفين ، فهو امر مبالغ فيه كثيرا ، لان جميع من عرفوه (وخاصة المثقفين منهم) يدافعون عن ذكراه بقوة ، وينفون عنه هذه التهمة . لم يكن (عميروش) متعصبا دمويا ، صحيح انه لم يتهاون مطلقا عندما يكون مستقبل الثورة في خطر ، ولكنه كان يجتذب مرؤوسيه ويسحرهم دائما ببساطته الطبيعية وروح الفروسية والشهامة المتأصلة فيه . لقد كان عصاميا، ينتهز كافة الفرص المتاحة لكي يتعلم ويستفيد من الذين يفوقونه ثقافة ومعرفة. لذلك ما كاد يسمع بحل (الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين) في فرنسا، حتى بعث الى (اخوته) في هذه المنظمة بالرسالة التشجيعية التالية :

(ان خدمة الوطن هي شعار جميع الجزائريين . اما انتم ايها الاخوة الموجودون في المدن والجامعات والمعاهد ، فان كل ما يحيط بكم يعبق بالروح الثورية التي تدفعكم للنضال والتفكير الدائم في واجبكم .

(لذلك يجب ان تظلوا رافعين لراية النضال في كل اعمالكم وتصرفاتكم وسلوككم . هناك العديد من زملائكم الطلاب يقاتلون الآن في صفوف المقاومة وانتم ايضا تناضلون في مجالاتكم ، لان خدمة الوطن يمكن ان تكون بأساليب

شتى . أن الجزائر بحاجة ماسة الى جميع ابنائها لكي تنتصر في نضالها السياسي ويتحقق استقلالها الناجز والتام . لذلك ، وتخليدا لارواح الشهداء الذين سقطوا في ساحات الشرف وهم يقارعون قوى الظلم والبغي والاستعمار ، يجب عليكم ، انتم ايها الطلاب الجزائريون ، أن تبرهنوا للعالم اجمع ان اعمالكم هي دائما في خدمة الثورة والقضية) .

وهكذا نرى ان (عمروش) كان مقتنعا بضرورة الدراسة لمصلحة الوطن . ومنذ شهر ايلول عام ١٩٥٧ ، وبناء على اقتراح الدكتور (لليام) الذي كان يتحدث باسم طلاب الولاية الثالثة ، قرر ان يرسل عددا من الطلاب لكي ينهوا دراساتهم في تونس ، حيث امن لهم الاقامة والعيش والدراسة . لذلك لا يمكن القول عنه مطلقا بأنه كان يشك في ولاء او وطنية الطلاب . وعندما قتل في ٢٨ اذار من عام ١٩٥٩ ، بدأ الفرنسيون حملتهم المحمومة لتشويه ذكراه ، فاتهموه بالتصفيات الدموية والحقد على المثقفين . الا ان صحيفة (المجاهد) هبت للدفاع عن ذكرى الفقيد الوطني الراحل ، فنشرت المقال التالي للملازم الاول الطبيب (احمد بودربه) تحت عنوان (لقد كنت رفيقا لعمروش) :

(كان متواضعا يعترف بنواقصه ونقاط ضعفه ، ويحرص على ان يحيط نفسه دائما بمستشارين اكفاء وذوي خبرة . كما كان يسعد بصحبة المثقفين الثوريين ، الذين يكن لهم الاحترام والتقدير . ولن انسى ما حييت ذلك اليوم الذي دعاني فيه ، خلال احد اجتماعات مجلس الولاية ، الى ترؤس الجلسة رغم كوني لا احمل اية صفة رسمية . لقد اراد بذلك ان يشير الى اهمية الدور الذي يجب ان يلعبه المثقفون في النضال ، ويبرهن عن حرصه الدائم وسعيه المتواصل لرفع المستوى الثقافي لثورتنا) .

ماذا حدث اذن لكي يعمد الرجل الى اجراء تلك التصفيات ؟ لا شك في ان الذين حوله قد أوغروا صدره . ولكي لا ندخل هنا في اعتبارات شخصية بحتة ، لنأخذ المسألة بعمومياتها ، فقد وجد في صفوف المقاومة هنا وهناك فئة من الكوادر غير المثقفين ، الذين كانوا يرون في هؤلاء الطلاب الشبان تهديدا لسيطرتهم ونفوذهم . لذلك اخذت التصفيات في الولاية الثالثة مداها والاتجاه

« المضاد للمثقفين » بسبب أحقاد شخصية بالدرجة الاولى . وفي الحقيقة ، لم تكن الضحايا الاولى من المثقفين ، ولكن ، اعتبارا من اعتقال طالب الطب « ابو داوود » ، بدأت سلسلة الطلاب تتتالى بسرعة .

الا ان هذا التفسير وحده لا يكفي . فقد كان « عمروش » قائدا مدركا لمسؤولياته وليس دمية يحرك خيوطها الاخرون . الحق يقال انه لم يتراجع امام تلك التصفيات الدموية لانه كان مقتنعا بضرورة اتخاذ تدابير لا تعرف الرحمة من اجل بقاء الثورة وتطهير صفوفها . اضف الى ذلك ان الثقة التي كان يمنحها للمثقفين الثوريين لم تكن في محلها دائما ، ففي عام ١٩٥٧ ، اجتمع في تونس بأحد المحامين الذي كان قد ارسل اليه مخزونا من الاسلحة ، فأخذ المحامي المذكور يحدثه عن الصعوبات الهائلة التي صادفها بعد ذلك لكي يفر من وجه السلطات الفرنسية ويلتجيء الى تونس . عندئذ قال له « عمروش » بشيء من السخرية : « ولكن جبل قرية ، حيث يوجد رجالنا ، لم يكن يبعد عنك اكثر من عشر دقائق ... » وعندما جمع في مستشفى « الصديقية » بتونس ٤٥ طبيبا جزائريا لكي يأخذ منهم متطوعين للعمل في صفوف المقاومة ، لم يحصل الا على اثنين فقط بينما تذرع الاخرون بشتى الاعذار الجسدية والصحية لكي يتهربوا من التطوع لذلك كان من الطبيعي ان يبقى في نفس عمروش شيء من الحقد على فئة معينة من المثقفين ، وهذا ما دعاه للتخلص من هذا النوع من الرجال عندما حصل على اثباتات تدين بعضهم ...

اما مؤامرة الولاية الرابعة فيجب ان تدرس على حدة : اذ يبدو من الواضح هنا ان الادانة لم تكن تتعلق بالطلاب كفئة معينة ، بل شلمت بعض الطلاب كما شلمت سواهم ، كما ان معظم الضحايا (٤٠٩ جنود) لم يكونوا من الطلاب ، ولكن الذي يلفت النظر هنا ان عدد هؤلاء كان كبيرا نسبيا في صفوف قادة المؤامرة واقطابها . رغم ذلك لم تأخذ التصفيات طابع « العداء للمثقفين » ، فها هو « بوعالم طيبي » ، ابن عم « سي طيب » ، لم يتطرق اليه الشك مطلقا ، بل احتفظ بكافة مسؤولياته . كذلك الطبيب « سي حسن » (يوسف للخطيب) ، الذي بقي في عداد لجنة التحقيق .

فيما بعد ، رأينا طالبا يرفع الى رتبة عقيد في تموز من عام ١٩٦٢ ، وهو العقيد لطفي (خلف بومدين على رأس الولاية الخامسة ، والذي كان طالبا في المعهد الفرنسي ـ الاسلامي بمدنية تلمسان) . تميز هذا الضابط خلال أزمة الصيف ، عندما هاجم الجزائر المستقلة المعاد تشكيلها ، واسر قائدها الجديد « سي طيب » لكي يقدمه الى المحكمة الثورية .

وهكذا نرى انه لا يجوز التحدث عن « العداء للمثقفين » بشكل مطلق . لقد كان هناك احيانا شيء من التعالي او الازدراء حيال المثقفين يظهر في قول بعض الضباط : « نحن رجال السلاح ، وانتم رجال القلم » . كانت النظرة العامة اليهم على اساس انهم متفوقون ، ولكنهم سريعوا العطب لا يتحملون المشاق . وهذا ما دعا الطلاب الى التمرد على هذا الموقف والمطالبة بحق الاشتراك في الثورة كمقاتلين عاديين . في شهر ايلول من عام ١٩٥٨ ، عاد من تونس العقيد « علي كافي » ، الطبيب « الامين خان » ، الرائد « علاوة بن بطوش » ، من الولاية الثانية ، الرائد « سي صلاح » والدكتور « ر » ، من الولاية الرابعة . في الطريق ، واثناء اجتياز « الحاجز القاتل » ، اصطدم « بن بطوش « بسلك مكهرب ، فصعق على الفور واحترق امام أعين رفاقه ، هنا جاء الدكتور » ر » ليعبر في اثر زميله ، فسارع « سي صلاح » لكي يمر قبله خوفا عليه من الاحتراق ، الا ان الدكتور رفض ذلك واصر على المرور اولا لكي يثبت ان المثقفين ليسوا اقل شجاعة من سواهم ... هذه العلاقة الخاصة بين المثقفين والمقاتلين القدامى ، وصفها « رشيد بوجدرة » في روايته الاولى فقال :

« كان اخوتنا الابكار يسيئون معاملتنا احيانا ، لانهم كانوا يراقبوننا في فترات الاستراحة بشيء من الحسد ونحن نقرأ المراجع السياسية والابحاث العملية والرياضية ، بينما كانوا يتحرقون شوقا ورغبة في الاطلاع والمعرفة في الحقيقة ، وفي قرارة نفوس هؤلاء ، كانوا يحترموننا ويسهرون الليل حول « اماكن اقامتنا ليحاولوا دون تحليق الكواسر فوق اجسامنا المتعبة » .

بعد الاستقلال ، حاول الباقون على قيد الحياة من الـ (١٥٠) طالبا ،

الذين كانوا يتبعون دورة تأهيل سياسي عقدت في الولاية الرابعة ، ان يجتمعوا ليجدوا اللقاء والتعارف ، فوجدوا انه لم يبق منهم سوى عشرة طلاب فقط ..

ج ـ الاسـر :

لم يستشهد الجميع بطبيعة الحال ، بل وقع عدد منهم في الاسر . فما هو موقفهم خلال تلك الفترة ؟ من المعروف ان الاتحاد العـام للطلاب المسلمين الجزائريين كان يستنكر دائما اعمال التعذيب الوحشية التي كانت تمارسها السلطات الفرنسية ضد الاسرى والمعتقلين ، بينما كان العسكريون الفرنسيون يؤكدون ان التعذيب لم يكن يمارس الا كوسيلة اخيرة ضد المناضلين القدامى والاميين ، لان معظم المثقفين كانوا يقتنعون سريعا بضرورة وقف القتال والمساهمة مع فرنسا في بناء جزائر جديدة على أسس جديدة من الاخوة والمساواة .

اما رأينا نحن ، فهو انه كان هناك عدد محدود من الطلاب المعتقلين ، الذين تأثروا بالمعاملة الحسنة والذكية لبعض الضباط الفرنسيين ممن حاولوا كسب هؤلاء المثقفين بأسلوب نفسي خاص دون ان يجرحوا شعورهم الوطني . الا ان تأثر هذا العمل النفسي لم يستطع الصمود في معظم الحالات امام تجربة السجون والمعتقلات . ولكل يعرف ان اكثر من معسكر اعتقال قد اشتهر بمعاملته السيئة وقسوته البالغة . ولا شك في ان تنفيذ حكم الاعدام بواسطة المقصلة قد وحد مشاعر جميع المعتقلين والهب حقدهم على المستعمر الغاشم. في كافة السجون الجزائرية ، كانت السلطات المسؤولة تسعى جاهدة لتحطيم المنظمة السرية لجبهة التحرير الوطنية بعزل وفرز المعتقلين الى فئات تتمتع كل منهم بمعاملة خاصة ، او عن طريق المزج بين اعضاء «الحركة الوطنية الجزائرية» التابعة لمصالي الحاج واعضاء جبهة التحرير الوطنية . الا ان اعضاء هذه الجبهة لم يقفوا مكتوفي الايدي ، بل حاولوا ممارسة تأثيرهم النفسي الخاص ، حيث تم تنظيم المعتقلين وتداول احاديث التوعية والنشرات التوجهية والدعائية . كذلك كان الكثيرون من المعتقلين المثقفين يقومون بتدريس رفاقهم الاميين او ذوي الثقافة الضعيفة بانتظار فجر الاستقلال .

٣ ـ في الاحتيـــاط

آ ـ استئناف الدراسة :

خلال الاضراب المدرسي ، ابتعد افق الاستقلال المنظور نتيجة قطـع المفاوضات وقيام المعسكرين بتعزيز جهدهما العسكري . لذلك لم يكن من المعقول التضحية لاجل غير معروف بدراسة الكوادر المستقبلية للجزائـر . وهكذا صدر في ١٤ تشرين الاول من عام ١٩٥٧ البيان التالي :

« لقد قررت اللجنة الرئاسية للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين بالاجماع وقف الاضراب عن الدروس والامتحانات اعتبارا من بدء العـام الدراسي ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨ . لذلك فهي توجه نداءها الاخوي الى جميع الطلاب والتلاميذ لاستئناف الدراسية على كافة المستويات التعليمية . الا ان الحظـر الكامل يظل مطبقا على جامعة الجزائر العاصمة ، التي لم يعد نهجها الاستعماري بحاجة الى اثبات .

وهكذا جاء هذا القرار منسجما مع البيـان الصـادر عن معارضـي ايـار ١٩٥٦ :

« نظرا لثقتنا المطلقة بالنهاية المظفرة لنضالنا التحرري ، ولوعينا التـام للمهام والاعباء الجسام التي ستقع علينا عند بناء الدولة الجديدة وادارتهـا السليمة ، يجب علينا ان تستعد من الآن لمواجهة هذه المسؤوليات الجديدة ، مبرهنين بذلك عن ايماننا بالمستقبل ونحن نستعد من خلال الحرب الغـد المشرق . ولن يكون ذلك الا باعداد الكوادر الصلبة الواعية والمثقفـة ، الجديرة بحمل الامانة وبالمحافظة على الروح الثورية لشعبنا المكافح .

رأت معظم الاوساط الفرنسية ، وخاصة الجمعية العامة لطلاب مدينة الجزائر ، في هذا البيان اعترافا مقنعا بالهزيمة ، مما دعا صحيفة المجاهد الى نشر المقال التالي ، الذي يرفض ويفند هذا الادعاء الباطل :

« سيكون من العسير على المستعمرين الفرنسيين ان يطلقوا صيحات النصر في اثر هذا القرار وان يجعلوا منه نوعا من الانتصار لدعوتهم السلمية المزعومة . صحيح ان الاضراب قد انتهى ، ولكن نتائجه باقية . فهناك ضربات لا تزول آثارها مطلقا ، كما ان الدعاية التي تحاول ان تجعل من المثقفين الجزائريين دعامة للنظام الاستعماري قد ماتت ودفنت الى الابد . فالشبيبة التي ضحت بسنتين دراسيتين في سبيل المثل الاعلى الوطني ، والتي تجد في نفسها القوة الكافية لاستئناف الدراسة من حيث توقفت ، لا يمكن ان تعتبر بشير يطمئن المستعمرين . كلا ، لن ينشد هؤلاء نشيد النصر ، بل سيستبد بهم القلق نتيجة عودة طلابنا للدراسة من جديد ... لقد هجر طلابنا المعاهد كوطنيين واعين لواجباتهم ، وهم يعودون اليها الآن كرجال احرار خصصهم الوطن لمهمات جديدة . ان الجزائر تسير بخطى كبيرة نحو الاستقلال ، وهاهم قادة الثورة يوجهون اهتمامهم من الآن الى آفاق المستقبل المزهر الذي يجب على كل جزائري ان يستعد له ... » .

ما كاد قرار انهاء الاضرا ب يصدر حتى ازداد عدد الطلاب في جامعات فرنسا : فقد تم تسجيل (٢١٩٠) طالبا جزائريا عند بدء العام الدراسي ١٩٥٧ ـ ١٩٥٨ بدلا من (١٥٤٤) في العام السابق . الا ان محنة الطلاب لم تنته بعد : فها هي الشرطة الفرنسية تشدد قبضتها على الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ، في ١٢ تشرين الثاني من عام ١٩٥٧ ، تم اعتقال الامين العام « خميستي » في مدينة « مونبلييه » . وفي شهر كانون الاول من العام نفسه ، عقد سرا المؤتمر الثالث للاتحاد لكي ينتخب لجنة رئاسية (مجلس ادارة) جديدة ، وذلك برئاسة السيد « مسعود عيط شعلال » . في ٢٧ كانون الثاني من عام ١٩٥٨ ، صدر مرسوم بحل «الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين»، كما تم اعتقال رؤسائه وتفتيش مقراته . هنا ثار الطلاب الفرنسيون اليساريون

واعلنوا عن تضامنهم مع رفاقهم الجزائريين ، فأطلق سراح رؤساء الاتحاد مؤقتا، ولكن معظم هؤلاء فروا الى الخارج حيث اعادوا تنظيم صفوفهم على منح كافية . في الوقت نفسه ، اعيد تشكيل الاتحاد سرا في فرنسا بشكل شعبة جامعية تابعة لجبهة التحرير الوطنية . في شهر كانون الاول من عام ١٩٥٨ وكانون الثاني ١٩٥٩ ، هبت موجة من الاعتقالات ، اجتاحت صفوف المنظمات الطلابية الجزائرية . وفي ٢٣ ايار من عام ١٩٥٩ ، تم اغتيال المحامي « ولد عودية » ، الذي كان يتهيأ للدفاع عن الطلاب المتهمين باعادة تشكيل الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين . لذلك عمدت السلطات ، لتهدئة بعض قطاعات الرأي العام ، وخاصة اليساريين من الاتحاد الوطني للطلبة الفرنسيين ، فجاءت الاحكام مخففة جدا ، حيث حكم على اثنين من المتهمين بالحبس لمدة عام واحد ، بينما اخلي سبيل الثلاثة عشرة الباقين .

وهكذا ، بعد ان اصبحت فرنسا اعتبارا من ٢٥ اب ١٩٥٨ ساحة معركة من جملة الساحات ، فقد بدأ الطلاب الجزائريون يغادرونها لمتابعة دراستهم في الخارج ، او للانضمام الى صفوف جيش التحرير الوطني في كل من تونس ومراكش . ولكي تحول فرنسا دون هذه الهجرة الجماعية ، قررت السلطات عدم اعطاء اي طالب جزائري ، مهما كانت الاسباب ، اضبارته الجامعية او المدرسية ، كما فرضت على الطلاب الحصول على تأشيرة خروج لمغادرة البلاد . رغم ذلك ، هبط عددهم في الجامعات الفرنسية من ٢١٩٠ في عام ١٩٥٧ ــ ١٩٥٨ الى ١٥٠٠ في عام ١٩٥٨ ــ ١٩٥٩ ، بينما انخفض هذا العدد الى ٦٠٨ في العام الدراسي ١٩٥٩ ــ ١٩٦٠ .

ب ــ الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين « في المنفى » :

كانت مهمة هذا الاتحاد اقل خطورة ولكنها لم تكن اقل صعوبة في المنفى ولا شك في ان الانسحاب من فرنسا كان مغامرة لم يسبق لها مثيل بالنسبة للحركة الطلابية الجزائرية المشكلة ضمن اطار الجامعة الفرنسية . الا ان الاتحاد قام ، منذ تأسيسه ، بتطوير علاقاته الدولية مع المنظمات الطلابية الاخرى ، مما ساعده بعد حله في الاستفادة من التضامن والتأييد القويين

اللذين كفلا له المنح الدراسية الخارجية ومكناه من اعادة تنظيم صفوفه . وقد جاءت الاحتجاجات ومظاهرات التضامن بعد حل الاتحاد لتبرهن على صحة هذه الاستراتيجية وبعد نظرها .

هناك ثلاثة مبادىء اوحت بالعمل الدولي للاتحاد الطلابي الجزائري : النضال ضد الاستعمار ، الاستقلال والعمل المتواصل الدؤوب . فقد التزم الاتحاد بالتعاون الواسع الدولي ضد الاستعمار ، رافضا الانحياز في الصراع بين الشرق والمغرب ، لان مثل هذا الانحياز لا يمكن ان يخدم قضيته . لذلك رايناه يقطع كل علاقاته مع المنظمات التي لا تدعم حركات التحرر الوطني ولا تؤيد حق تقرير المصير (كالاتحاد العام للطلاب الفرنسيين من عام ١٩٥٦ حتى ١٩٦٠) . ولنفس الاسباب ساهم في مؤتمر الطلاب الذي عقد في (باندونغ) خلال شهر حزيران من عام ١٩٥٦ ، كما حصل على اعتراف رسمي به كاتحاد وطني في المؤتمر الطلابي الدولي السادس (١) الذي عقد في (كولومبو) خلال شهر ايلول من عام ١٩٥٦ ، رغم معارضة الاتحاد الوطني للطلاب الفرنسيين ، كما انضم بعد ذلك ببضعة اشهر كعضو مشارك الى (الاتحاد الدولي للطلاب (٢) . ولا نريد هنا ان نسهب في تعداد المؤتمرات الدولية التي ساهم فيها الاتحاد العام للطلاب المسلمين الجزائريين في الشرق والمغرب وفي الدول غير المنحازة لان اللائحة طويلة جدا . في كافة هذه المؤتمرات والمحافل الدولية ، كان الطلاب الجزائريون يشرحون نضالهم من اجل الاستقلال . لذلك نجد في احد تقارير الاتحاد الفقرة التالية : (كان هدفنا واضحا : وهو الاعلام وشرح الواقع الجزائري المر ، وجعل الاوساط الطلابية العالمية تميز بين فرنسا الثقافة وفرنسا الاستعمار . . » وقد بلغ النشاط الطلابي هذا مرحلة ادت الى اثارة القلق لدى السلطات الفرنسية ، لذلك اعلن الجنرال « شال » في شهر تشرين

---

(١) ـ يعتبر هذا المؤتمر تنظيما يضم النقابات الطلابية التي انفصلت عن (الاتحاد الدولي للطلاب) نظرا لانحيازه الى الحركة الشيوعية . اما مقر هذا المؤتمر فهو في (لايد) ـ (هولندة).

(٢) ـ يعتبر هذا الاتحاد منظمة طلابية عالمية اسست في براغ سنة ١٩٤٥ ، يشرف عليها الشيوعيون اعتبارا من نهاية عام ١٩٤٨ ، اما رئيس هذا الاتحاد ، الذي قدم الكثير من المساعدة والتأييد للطلاب الجزائريين ، فهو (جيري بيليكان) .

الاول من عام ١٩٥٩ ما يلي : « حتى لو منعنا فرحات عباس ومعاونيه المباشرين من العودة ، يجب ألا ننسى ان جميع طلاب جبهة التحرير الوطنية الموزعين في كل مكان من العالم ، وخاصة فيما وراء الستار الحديدي ، سيعودون ايضا ، وانا أرى ان هؤلاء قد يكونوا في الحقيقة اكثر خطورة من فرحات عباس ورفاقه .. » .

وهكذا كان كل ما يلحق بالاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين من اضطهاد او اعتقالات او محاكمات او اغتيالات ، ينقل فورا الى مسامع الاوساط الطلابية في العالم اجمع . لذلك ورد في احد تقارير الاتحاد ما يلي : « لولا هذا الضغط الواسع والشديد من قبل الاوساط الطلابية العالمية ، لكانت منظمتنا تتعرض لضربات اكثر قسوة واشد وحشية ... » ولا شك في ان اطلاق سراح قادة الاتحاد مؤقتا ، بعد حله في شباط من عام ١٩٥٨، قد جاء نتيجة لحملة الاحتجاجات التي قامت في فرنسا وفي العالم كله . وقد سمح التضامن الطلابي للاتحاد الجزائري بنقل قاعدته الى الخارج ، حيث تدفقت عليه المنح الدراسية لكي تعوض على الطلبة الجزائريين ما فاتهم من مقاطعة الجامعات الفرنسية . ففي شهر تشرين الاول من عام ١٩٥٧ مثلا ، حصل الاتحاد على : عشرين منحة في سويسرة ، عشر منح في الدول الشرقية ، ثلاث منح في منطقة الـ « سار » . وفي ١٧ و ١٨ نيسان من عام ١٩٥٨ ، عقد المؤتمر الدولي للطلاب اجتماعا استثنائيا في لندن حول حل الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين ، اتخذ فيه قرارا يؤيد فيه التفاوض من أجل استقلال الجزائر ، كما وضع برنامجا للمساعدات المادية وخطة للمنح الدراسية للطلاب الجزائريين . وفي ٢٤ — ٣٠ ايار ١٩٥٨ ، قام الاتحاد الدولي للطلاب بتنظيم اسبوع للتضامن مع الشعب الجزائري ، كما قدم هو الآخر منحا دراسية عديدة في البلدان الاشتراكية . وهكذا كانت حركة التضامن هذه تتسع عاما بعد عام في كافة انحاء العالم . في عام ١٩٦١ ، صدرت وثيقة رسمية تحدد توزيع المنح حسب البلدان الاختصاصات التعليمية ، حيث بلغ المجموع ١٨٨٢، منها ٩٨٧ للتعليم الثانوي و ٨٤٧ للتعليم العالي . ولما كان التوجه العام لاغلبية الطلاب نحو الدراسات الادبية ، فان الاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين

ووزارة الشؤون الاجتماعية والثقافية قد وجها اهتماما خاصا لتشجيع الدراسات العلمية والتقنية لتجاوز الثالوث القديم (حقوق ـ طب ـ صيدلة) الذي ظل الطلاب الجزائريون محصورين داخله حتى عام ١٩٥٤ . لذلك رأينا السيد فرحات عباس يشير في خطابه امام المؤتمر الرابع للاتحاد العام للطلبة المسلمين الجزائريين الى اهمية هذا التوجه الجديد فيقول :

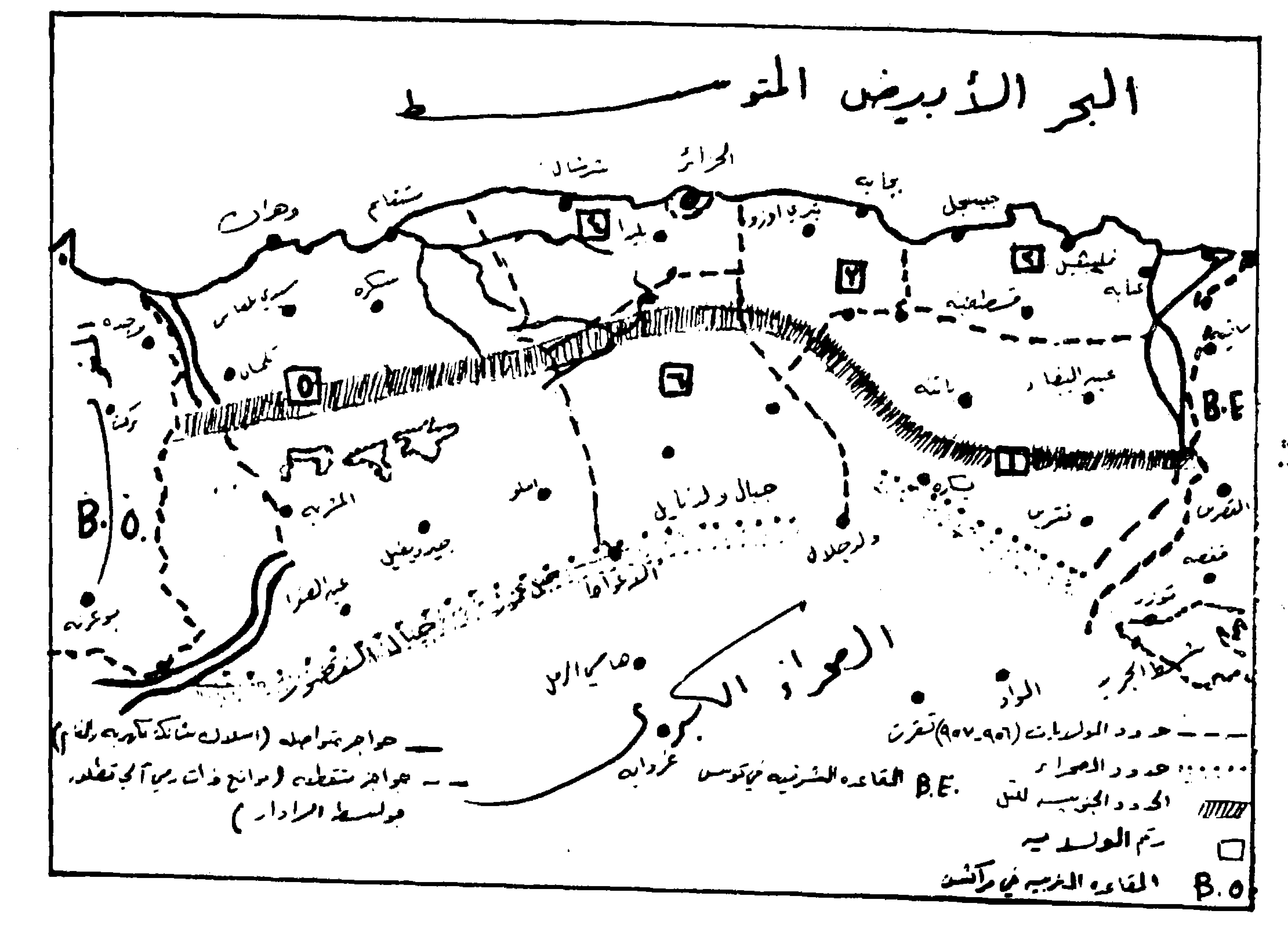
« وهكذا استطعتم تحطيم اسطورة ودحض خرافة . فها هي الايام تؤكد لنا باستمرار انه لا يوجد عرق متفوق وآخر ادنى ، لقد نجحت الثورة الجزائرية في ان تؤهل منكم خلال ست سنوات تقنيين يفوقون كما ونوعا كل ما اهله النظام الاستعماري طوال ١٣٠ عاما من الاحتلال . ان اغلاق ابواب الكليات العلمية والمعاهد التقنية في وجه الاجيال الجزائرية كان مقصودا ومفتعلا لكي يتسنى للمستعمرين اتهام شعبنا بعدم الاهلية للاختصاصات العليمة العالية .. » .

كان توزيع الطلبة المهندسين في تلك الفترة كما يلي : ٢ في البلدان العربية ، ٦٥ في الغرب و ١٢٨ في البلدان الاشتراكية . وقد ادى انتشار الطلبة الجزائريين في كافة انحاء المعمورة الى تعرضهم لتأثيرات ايديولوجية مختلفة ، اربكت المسؤولين كما حدث في المؤتمر الرابع للاتحاد ، الذي عقد في تونس خلال شهر تموز من عام ١٩٦٠ .

ج ـ الطلاب في الجهاز الخارجي لجبهة التحرير الوطنية وجيش التحرير الوطني :

عمل الاتحاد الوطني للطلبة المسلمين الجزائريين ، كغيره من الجمعيات الطلابية السابقة ، كمدرسة كوادر الحركة الوطنية . لذلك نجد قادته البارزين يحتلون مراكز هامة في الجهاز الخارجي الحكومي والدبلوماسي لجبهة التحرير الوطنية . فها هو « محمد بن يحيى » ، زعيم شعبة الجزائر العاصمة التابعة للاتحاد ، يعين عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية منذ شهر آب ١٩٥٦ ، بعد ذلك عين ممثلا للجبهة في اندونوسيا ، ثم مديرا لمكتب الرئيس فرحات عباس ، حيث جاء الى مدينة ملان في حزيران من عام ١٩٦٠ ، مع السيد « احمد بومنجل » ، لكي يمهد لمفاوضات مباشرة . وها هو الدكتور « الامين خان » ، المناضل الآخر في مدينة الجزائر ، يعين سكرتير دولة في اول « حكومة مؤقتة للثورة الجزائرية » عام ١٩٥٨ . كذلك السيد « رضا مالك » ، العضو السابق

ولايات جيش التحرير الوطني (تقسيمات عـام ١٩٥٦)
وحواجز (سدود) الجيش الفرنسي (انتهت عام ١٩٦٠)



تونس

في دارة الاتحاد ، يتولى رئاسة تحرير « المجاهد » في تونس ، كما يصبح الناطق الرسمي لوفد جبهة التحرير الى مؤتمر « ايفيان » الاول . وها هو « محمد حربي » ، العضو البارز في اتحاد فرنسا لجبهة التحرير الوطنية ، يعين معاونا للسيد « بلقاسم كريم » ، ثم سكرتيرا عاما لوزارة الخارجية اثناء المفاوضات الحاسمة في الفترة الحرجة ١٩٦١ ـ ١٩٦٢ . اما « بلعيد عبد السلام » ، الاب الحقيقي لاتحاد الطلبة المسلمين الجزائريين ، و « محمد خميستي » الذي خرج من السجن ، يمثلان جبهة التحرير الوطنية في المجلس التنفيذي المؤقت مع الدكتور « مصطفى » ، وهكذا تخرج هؤلاء وغيرهم المؤقت من مدرسة الاتحاد الوطني للطلبة المسلمين الجزائريين ..

واخيرا ، قدمت الحركة الطلابية ايضا كوادر جديدة لجيش التحرير الوطني ، بعد فشل اللقاء الاول بين الجانب الفرنسي وجبهة التحرير في « ملان » خلال شهر حزيران من عام ١٩٦٠ ، ظهر ان مواقف الطرفين مازالت متباعدة رغم الاعتراف بحق تقرير المصير . لذلك ، ولان الاستقلال اصبح متوقعا ، رأت جبهة التحرير ان عليها ان تعزز ضغطها لارغام الحكومة الفرنسية على التنازل عن شروطها ، فانعقد المؤتمر الرابع للاتحاد الوطني للطلبة المسلمين الجزائريين ، الذي ذكر باضراب ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ واعلن التعبئة العامة في صفوف الطلاب : « قرر الطلبة الجزائريون متابعة نضالهم التحرري وزيادة مساهمتهم المباشرة في القتال مهما غلا الثمن وارتفعت التضحيات . لذلك فهم يعتبرون انفسهم في حالة تعبئة دائمة لخدمة الثورة ، مستعدين لترك الدراسة في اية لحظة تلبية لنداء حكومتهم » .

في هذه المرة اذن ، لم يعلن الاضراب العام ، ولكن الاتحاد وجه نداء الى متطوعين جدد ، فلبى الدعوة عشرات الطلاب انضموا الى صفوف جيش الحدود المتمركز في كل من تونس ومراكش . وهكذا تم تعزيز كوادر هذا الجيش بانتظار تحويلة الى جيش حديث .

وهكذا ساهم الطلاب ، كغيرهم من فئات الشعب الجزائري ، في حرب التحرير ، كما وصل بعضهم الى مراتب قيادية هامة . الا ان مهمتهم الاساسية كانت الاستعداد لفجر الاستقلال مع البقاء كاحتياط جاهز ومستنفر .

ملحـــق رقـــم (١)

برنامج الاتحاد الوطني للطلبة المسلمين الجزائريين في خطاب احمد طالب (مقتطفات) ـ باريس ، تموز ١٩٥٥

١ ـ « ايها الطلاب ، لا بد لنا من النضال على الصعيد التنظيمي لكي نذلل كافة الصعوبات التي مازالت تعترض سبيلنا [...] » .

٢ ـ « ايها الطلاب المسلمون ، نحن نتألم جسدا وروحا وكرامة لان لغتنا تعتبر لغة اجنبية في بلدنا . لذلك يجب علينا مواصلة الكفاح حتى تستعيد هذه اللغة وسيلة نقل حضارتنا ، مكانتها المميزة التي تستحقها » .

٣ ـ « يجب علينا كطليعة لشبيبتنا ان نكافح دون هوادة او كلل في سبيل تعليم كافة الشبان [...] ولا شك في اننا سننتزع حق هؤلاء في التعليم والتربيـة » .

تستلزم هذه الاهداف الثلاثة اختيارات سياسية محـددة ، **فالنقطة الاولى تتضمن :**

المطالبة بمنافذ للشبيبة : « ولا بد لنا من التأكيد على الدور الاساسي لمنظمتنا في البحث عن منافذ لشبيبتنا . ان المقصود هنا هي مساهمتنا الفعلية (ككوادر لبلادنا) في المسؤوليات على كافة اصعدة الحياة العامة . لذلك علينا ان نطالب بتغيير جذري في اختيار الكوادر الادارية والاقتصادية والسياسية ».

اما النقطـة الثانية فتنتقد الطابع الاستلابي للتعليـم الفرنسي المتسلط :

« مع اعترافنا بكل ماندين به لاوروبا ، وما فتحته لنا ثقافتها من ابواب واسعة على العالم الحديث ، فانه يحق لنا (بل يجب علينا) ان نحافظ على هويتنا ونصون شخصيتنا المستقلة » . **لم يكن ذلك التعليم منسجما مع الوسط الاسلامي** ، وهذا « ما جعل المثقفين الجزائريين كالايتام الضائعين بين عالمين ، لم يحققوا الاتصال مع ثقافتهم الحقيقية ولم يستوعبوا تلك التي فرضت عليهم » .

الا ان الطلاب المسلمين لا يريدون ان يبقوا ايتاما : « من المبادىء الاساسية لاتحادنا هذا ان تحول دون اسلوب الفصل والعزل الذي تطبقه علينا مناهج التعليم في المعاهد الفرنسية . ونحن مقتنعون بأن الصفوة المختارة لا يمكن ان تساهم في تحسين ظروف شعبنا ورفع مستواه ، الا اذا بقيت ملتصقة به ومتمسكة بتراثه الاصيل » .

لا يمكن تصحيح هذا الوضع الا بتغيير سياسي جذري : « ولا بد من تبدل في الموقف التقليدي للادارة تجاه ثقافتنا ، هذا الموقف المستوحى من خوف السلطات الحاكمة من رؤية الشبان المسلمين يتمسكون بدينهم ولغتهم وماضيهم .

الا ان هذا التغير لا يمكن ان يحدث اذا لم يوجد حل شامل للمسألة الجزائرية . فالمطلوب هنا نظام تعليمي مناسب للشخصية الجزائرية يوفق بين الثقافتين الغربية والعربية بدل الاسلوب الحالي للاستيعاب الاستعماري. ويمكن القول بتعبير آخر انه لا بد للتوصل الى نوع من التعايش بين الحضارتين من اتباع سياسة جديدة واقعية للتعاون بين الشعبين على اساس متين من المساواة المطلقة [...] الا اننا نرى الآن سماء الجزائر متلبدة بغيوم الخوف والقمع ، ومسؤولية ذلك تقع على عاتق اولئك المتسلطين على الحكم ، والذين لا يريدون ان يتقاسموه بأي ثمن كان مع الممثلين الحقيقيين لشعب يعيش غريبا في ارضه منذ ١٢٥ عاما . ولا شك هنا في ان الظلم والاضطهاد سيؤديان الى نفاذ الصبر وتأجج البغضاء واثارة الاحقاد » .

ليست هذه النهاية مرغوبا فيها : « فمن اهداف اتحادنا أيضا ان يكون اشبه بهمزة وصل بين الحضارتين » ، **الا ان الحركة الطلابية لا تستطيع الوقوف على الحياد :** « من المعروف ان اتحادنا ليس تشكيلا مصطنعا ، بل هو انعكاس لتيار جارف لم تكن لنكتفي بالانجراف معه ، بل نريد ان نساهم فيه بصورة ايجابية وفعالـة » .

ملحـــق رقـم (٢)

نداء ١٩ ايار ١٩٥٦ (كما نشرته صحيفة المجاهد في عدد حزيران ١٩٥٦)

(ايها الطلاب الجزائريون) :

بعد اغتيال اخينا (زدور بلقاسم) من قبل الشرطة الفرنسية ، بعـد قتل اخينا البكر ، الدكتور (بن زرجب) ، بعد النهاية المأساوية التي عرفها اخونا (ابراهيمي) ، الذي احرق حيا من قبل الجيش الفرنسي ، بعد اعـدام مجموعة من الرهائن ، من بينهم الكاتب المعروف (رضا هوهو) ، امين سر معهد (بن باديس) في قسطنطينـة ، بعد التعذيب الوحشي الذي تعرض له الاطباء (هدام) من قسطنطينة ، (بابا احمد) و (طبال) من تلمسان ، بعد أعتقال رفاقنا : عمارة ، لونس ، صابر وطواطي ، زروقي ومادي ، وبعـد حملات الارهاب ضد اتحاد الطلاب المسلمين الجزائريين ، هاهي الشرطـة الفرنسية تنتزع من بين ايدينا اخانا (فرحات حجاج) ، الطالب في المرحلـة التحضرية للاجازة الجامعية والمدرس في المدرسة الداخلية لـ (بن اكنون) ، لكي تقوم بتعذيبه ثم ذبحه بوحشية منقطعة النظير بالتعاون مع الميليشيـا المحلية . هل كان عبثا اذن ذلك الانذار الرائع الذي اعطاه اضرابنا يوم ٢٠ كانون الثاني ١٩٥٦ ؟

من المؤكد ان شهادة اضافية لا تقدم جثة افضل ! ماذا تفيدنا هـــذه الشهادات التي تمنح لنا بينما نجد شعبنا يناضل ببطولة فائقة ، بينما تغتصب امهاتنا وزوجاتنا واخواتنا ، وبينما يتساقـط اطفالنا وشيوخنـا صـرعى الرشاشات والقنابل والنابالم ؟ اما نحن ، (كوادر الغد) ، فلصالح من وماذا نتأهـل ؟

لصالح الدمار واكوام الجثث والضحايا في قسطنطينة وتيبيا وفيليب وتلمسان وغيرها مما لا شك فيه ان موقفنا السلبي ازاء الحرب الدائرة امـام اعيننا يجعلنا غير جديرين بالمفاخر التي يصنعها جيشنا البطل كل يوم . ان الطمأنينة المزيفة التي وجدنا انفسنا فيها لم تعد ترضي ضمائرنا مطلقا .

ان واجبنا الوطني يدعونا للقيام بأعباء اخرى اكثر الحاحا وارفع شأنا واعلى شرفا واكثر مجدا . ان واجبنا يدعونا للعذاب اليـومي الى جانـب اولئك الابطال الذين يناضلون ويستشهدون احرارا في ساحـات الشـرف والقتال . لذلك سنقوم جميعا بالاضراب الفوري عن الدراسة والامتحانات الى اجل غير مسمى . يجب علينا انهجر مقاعد الدراسة الى المقاومة السرية ، وان نلتحق بأعداد كبيرة في صفوف جيش التحرير الوطني وجبهة التحريـر الوطنيـة .

ايها الطلاب والمثقفون الجزائريون ، لا تكونوا جاحدين او مترددين أمـام العالم الذي يراقبنا والامة التي تدعونا والملحمة البطولية التي يخوض شعبنا غمارها بكل شرف » .

توزيع المنح الدراسية للجزائريين (١٩٦٠ – ١٩٦١)

البلد	آداب	حقوق وعلوم اقتصادية وسياسية	علوم	طب صيدلة	هندسة	تقنيون	ثانوي	متفرقات	المجموع
مراكش	٣٠	٤٠	٢٠	–	–	–	٣٥٠	–	٤٤٠
تونس	١٧	٧	١٠	–	١	–	٤٩٩	٢	٥٣٦
العراق	٩١	٣٢	–	–	–	–	–	–	١٢٣
الاردن	–	–	–	–	–	–	٩	–	٩
الكويت	–	–	–	–	–	–	–	٣٦	٣٦
ليبيا	١٩	–	–	–	–	–	–	–	١٩
ج.ع.م (مصر)	٦٠	٤	١	١	١	–	٦٢	١	١٣٠
ج.ع.م (سوريا)	٢٣	٢٩	–	–	–	–	٢٤	–	٧٦

(تابع) توزيع المنح الدراسية للجزائريين (١٩٦٠ – ١٩٦١)

البلد	آداب	حقوق وعلوم اقتصادية وسياسية	علوم	طب صيدلة	هندسة	تقنيون	ثانوي	متفرقات	المجموع
المانيا الاتحادية	١٤	١٤	٣	١٥	٢٤	٢	١	٢	٧٥
بلجيكا	–	١	٢	٤	–	٤	–	–	١١
كندا	–	–	–	–	١	–	–	–	١
بريطانيا	–	–	–	–	–	–	١	–	١
ايطاليا	١	–	–	–	–	–	–	–	١
النروج	–	–	–	–	٣	–	–	–	٣
السويد	–	–	–	١	–	١	–	–	٢
سويسرة	١١	٢٦	٦	٦٩	٢٠	٢	–	١	١٣٥
الولايات المتحدة	٣	١٢	٧	١	١٧	–	–	١	٤١

(تابع) توزيع المنح الدراسية للجزائريين (١٩٦٠ ـ ١٩٦١)

البلد	آداب	حقوق وعلوم اقتصادية وسياسية	علوم	طب صيدلة	هندسة	تقنيون	ثانوي	متفرقات	المجموع
المانيا الديمقراطية	٧	١١	٦	٩	٢٧	١٦	٤	٢	٨٢
هنغاريا	—	٢	٢	—	٧	—	—	—	١١
بولونيا	—	١	—	—	٣	—	—	—	٤
رومانيا	—	—	—	—	٩	—	—	—	٩
تشيكوسلوفاكيا	١	٥	—	٢	٢٤	—	١	٢	٣٥
الاتحاد السوفييتي	—	١	١	٣	٢٧	—	—	—	٣٢
يوغوسلافيا	١	١٠	—	٧	٢٢	٢	—	—	٤٢
ألبانيا	—	١	—	١	١	—	—	١	٣
بلغاريا	١	٣	١	١١	٩	—	—	—	٢٥

الفهرس

الموضوع	الصفحة